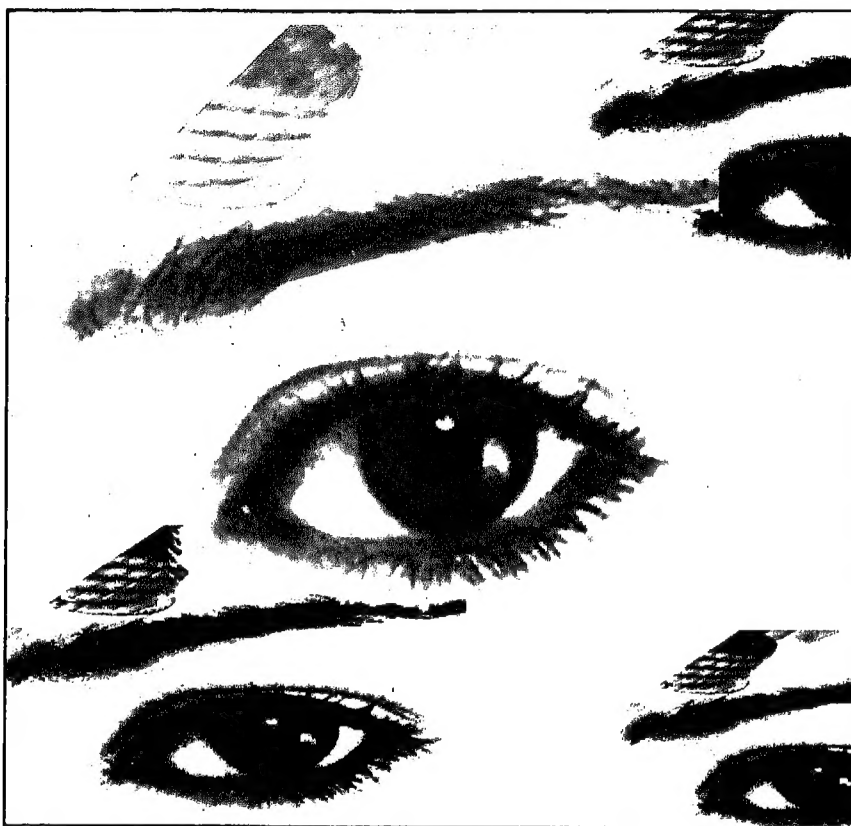


محمد جميل الخطاب



الحايون

في الشعر العربي



الحيون في الشجر العربي

* العيون في الشعر العربي

* تأليف: محمد جميل الخطاب

* جميع الحقوق محفوظة

* الطبعة الأولى 1999

* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية - اللاذقية - ص. ب 1018 - هاتف 422339

محمد جميل الخطاب

العيون

في الشعر العربي

دار الحوار

تقديم

إهداء

إلى العيون المحبة الجميلة
التي كنت بنورها أكثر رؤية
وبوحيا أبعد إلهاماً

تقديم

د. علي عقلة عرسان

ما الذي يتبادر إلى الذهن أولاً عندما تُذكر العين؟ أهى الرؤية بنعمها وصفاتها ومواصفاتها ووظائفها وما ينتج عن ذلك كله من خير وشر؟ أم الجمال الخاص، والعام بمقاييسه ومقوماته وقيمه، وما تضيفه البصيرة إلى البصر وما يحمله البصر من البصيرة، عندما تكون العين لسان القلب ونافذة الروح أو منفذاً لها، تحمل مكنون القلب الذي يطفر مع أشعتها ويستشف بواسطتها مافيه، وتسل مافي النفس إن خيراً وإن شراً، إن ضعفاً وإن قوة؟ وما الذي في هذه الحاسة مما يبقى بحكم فيزياء الجسد وما الذي يصبح منها جزءاً من كيمياء الروح لا يتحكم به الجسد؟ أسئلة في سؤال طرحته على نفسي عندما تناولت يدي مخطوط هذا الكتاب قبل أن أقرأ فيه حرفاً. وعندما انتهيت من قراءته لم يبق في نفسي ظلال لسؤال الأسئلة؛ فقد طاف

المؤلف بي في جولة واسعة امتدت من عرض
أفكار لفلاسفة علم الجمال فيما يتعلق بالجميل
وصفاته والجمال ومقوماته، وما يتصل من ذلك
بالحكم عليه وبتذوقه، إلى ما يثير في النفس
كوامن الشوق عندما يعرض عليها منخول
الشعر، فيثير فيها رسيس الحب، ونزوعاً إلى
الجمال المغشى بألوان من الانفعال والصبر
والصبا، مما لا يمكن مجاوزته مع بقاء التوازن
والإتزان في مواقعهما المعهودة.

في هذا الكتاب (العيون في الشعر العربي)
للأستاذ محمد جميل الخطاب استعراض لما
يتصل بالعيون في نسقين عامين:

* نسق الجميل خلقاً وشكلاً وتشكلاً مادياً
مما تتوافر فيه أعمدة الجمال وفروعه وتفاصيله
وما يضاف إلى ذلك من ملح الجمال، يزكو به
ويشدد وقعه في النفس، من مشتقات الروح
والطبع والتطبع، تلك التي تضيف على الشكل
الجميل روحاً يبقى من دونه تمثلاً حجرياً
جميلاً، من حلاوة وملاحة وحيوية تبعث
الجمال إعصاراً يزويح الأعماق، ويعوم كل

مافيه قبل أن يستقر بها على صيغة ما من
الشجو والشدو والاستساغة والتسويغ القبول
والرفض.

* ونسق الجميل إبداعاً واتساقاً وقيمة معنوية
وروحاً مبثوثاً في صور الإبداع الفني والأدبي
والفكري، مما يجعل الوعي المعرفي في نفس
يعيد تكوين المعطيات في صور جمالية
مستساغة، أو يعيد النظر بمقاييس الجمال
ومعايره على نحو يسمح بإعادة نظر بما استقر
عليه الذوق من حال مع الجمال ومعايره
وآثاره وتأثيره.

وما استعرضه المؤلف بتركيز هو مما يندرج في
النسق الثاني، وما جاء في هذا النسق لا تقف في
وجهه حدود، وربما كان من طبيعة الإبداع أنه
يتجاوز المؤلف والمحدد والمقيّد، ويسبح في بحر
بلا ضفاف، ويغوص في أعماق، ليخرج بدرر قد
لا تخطر على بال؛ ولذا فإن ما جاء في هذا النسق
الذي يشكل قوام الكتاب غني ومفيد وجذاب،
ففضلاً عن جنيته لأجود ثمار الإبداع وأشهاها
من مظانها البعيدة عن متناول من لا يبدل جهداً

متميزاً في البحث، فإنه لم يدع حديقة من
 حدائق شعر العرب: قديمه وحديثه إلا وقطف
 منها ثمرة وحمل منها غصناً؛ ولكن ما علق بيرده
 وسلاله من ورد الحدائق وعطرها يغري بتلقت
 القلب من بعد شم أو نظر؛ لأن ما حمله من فاعم
 العطر وشهي الثمر ومترف الورد لا يترك النفس
 من دون أن يغريها باتباعه، ولا يترك الذاكرة التي
 يطرق بابها من دون أن يفتح نوافذ الماضي لها
 ويستثير مكنوناته. فالشعر الذي قدم سحر العيون
 وتاريخ العشق وارتعاش المشاعر، وأشار إلى
 الجمال باجتهاد، من خلال قطوف الإبداع جاء
 مؤكداً نجاح البحث ودالاً على ذوق وتبع وبذل
 جهد لا يستهان به؛ وهذا يستحق ذكراً وتقديراً.

ولم يخل الباحث بجهد في تقصي المعرفة
 حول مواضيع تتصل بالبصر أو بالبصيرة
 لاستكمال بحثه، كما أنه عرج على أبواب
 أخرى في مجال المعرفة المتصل بالعين لغة
 ومدلولاً ودقة وصف وهوامش دلالية، تعطي لما
 قد يظن أنه مترادفات حق الحضور عند
 الاستخدام العلمي الدقيق للكلمات، حق
 الحضور في لغة ومعرفة من يريد أن يتعامل مع

تقديم

اللغة بعلم ودقة معرفة. ومما أشار إليه أبواب
تتصل بما قيل إنه فعل العين من نظرات تحمل شراً
كالجسد القتال والنظرة التي تتد الفؤاد في الرماد.
إنه كتاب يستحق القراءة، وجهد باحث
يستحق الاهتمام، وموضوع يستحق الاستكمال،
إذ لا يبلغ الكمال إلا من هو الكمال بعينه؛ فتحية
للباحث مع أطيب التمنيات.

الدكتور علي عقلة عرسان

استهلال

استهلال

العين مرآة النفس، ومفتاح شخصية الإنسان، ومجتمع قواه، ومعانيه المختلفة. فيها يتجلى الحب، والبغض، والعداوة والصداقة، والرحمة، والقسوة، والذكاء والغباوة، والقوة، والضعف، والحزن، والسرور، والصحة والمرض، والأمر والنهي، والهدوء والقلق. العين ترجمان الضمير، كوة على المدى، باب إلى التعرف، مصدر للجمال.

وجد فيها الملهمون عالم أسرار، وجماليات، واستيحاء، وقابل بها المحبّون من أحبّوا بقولهم: «أنت عيني»، وأقسم بها الواصلون «وحياة عينيك» وقرنها المغنّون بالليل فأكثروا من ترديد «يا عيني يا ليل»⁽¹⁾.

العين والقلب جناحان للحياة. هذه ترى الوجود على سطحه، وذلك يرى الكون في أبعاده وأعماقه، ولذلك سمّيت عين الوجه باصرة، وسمّيت عين القلب بصيرة. العين أمّ الحواس لا تقوّم المقدّرات إلّا بعد أن تمرّ على ميزانها أولاً.

الله عرف بالعين في تجلّيه فليل في حقّه، حضور، شهود، تجلّ.

شكّ اليونان ثمّ آمنوا بآلهه وأوها، وحرار بنو القدس، واستلّنا لإله تجسّد في طفل من الناصرة، ثمّ رآه القديس توما فكانت الرؤيا إيماناً،

(1) - العين في الشعر العربي. د. علي شلق الصفحات (5 - 8)

ونفى عنه الإسلام الصلب فمثله لعين العقل مرتفعاً إلى الله.
حتى سيدنا موسى كلم الله عز وجل فصاح «رب أرني أنظر إليك»
فالعلم لا يصير علماً إلا إذا أقرته العين.

العين تتناول الشكل، الجو، الوضع، ومايوحي به كل ذلك. فهي
صورة عن المطلق الذي يحتضن الكون بعين رعايته مثلما هي باب كل
واقعي مرئي.

العين أداة البصر، وأرقى الحواس الخمس. وهي مع ملحقاتها الحاجب
والجفون، والجهاز الدمعي أغلى شيء يملكه الإنسان في دنياه، لأنها
الصلة بينه وبين عالم الضياء والنور. هي وعاء سحري رائع تنطوي فيه
صورة الأرض والسماء. لحاظها سهام تصيب جوارح، وتذكي قرائح.
هي ينبوع الوعي والجمال يعجب الشاعر بظواهرها وتفتنه لحظاتها
وغمزاتها، ويتخيل مافي أعماقها من أسرار حسب إحساساته ووجدانه،
ويصفها بمقدار مافي شاعريته من ضعف أو قوة. هي أجمل قطعة فنية
وصفها الله في خلقه وجعلها فتنة للناس «وزوجناهم بحور عين».

ولقد كان الشعراء العرب يدعون في ابتكار المعاني، وصياغة
الألفاظ، ويقدمون لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف
العيون.

يثيرون المشاعر، والأحاسيس الحلوة؛ فيرى المرء العيون بعين الخيال
تسمو، وتتعالى بالجمال. ومن الحقائق المعروفة أن تذوقنا للعمل الفني
يعتمد أساساً على حاسة البصر التي يمكن أن تثير حواس أخرى
كالسمع والشم والذوق...

وكما يذهب بعض الشعراء - مثال رامبو - إلى أنَّ للكلمات كيمياء خاصة بها، وأن الكلمة يمكن أن توحى بالصورة والإيقاع، والملمس والطعم، واللون، والرائحة.

وكذلك يرى بعض المصورين أننا حين تمسح أعيننا صورة ما لانرى ألواناً وخطوطاً فقط؛ بل نشم رائحة، ونسمع أصواتاً تتفاعل في بوتقة الخلق لتصبح طاقة من الانفعال الذي يحدّد لنا بدوره إيقاعاً، ونغمّاً نتبعه بأعيننا على السطح المرسوم.

وقد كتب المؤرخون عن عيون الملكة زنوبيا فقالوا: إنّها أسهمت في إقامة علاقات خاصة بين الصحراء والقمر.

من أجل هذا كلّه كان الدافع إلى كتابة هذا البحث، والغوص في كنوز التراث العربي على فرائد من الأدب الخالص في وصف العيون، وأفعالها، وتأثيراتها، وإحباطاتها. فتجمّع لديّ شعر كثير رثيته، وعرضته في هذه الدراسة الانطباعية التأثيرية التي تعتمد على التأثير الذاتي، والتذوّق الفني والاطلاع الواسع على مآثور الأدب، والبحث عن القيم الشعورية والتعبيرية للعمل الفني.

وقد قسّمت الكتاب إلى عدة فصول. حاولت فيها أولاً أن أعرض باختصار آراء الفلاسفة عبر العصور، في الجمال وفلسفته والفرق بين الجميل والحسن ومفهوم الجميل في كتب اللغة العربية.

وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن ثقافة العين، وأنواع النظر. ومحاسن العين، وأوصافها، وما قاله الشعراء فيها منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث دون مراعاة للتسلسل الزمني بشكل دقيق.

كما تحدّثت عن معائب العين وسلبياتها.

وفي نهاية البحث قمت بجولة فنية في آفاق العين الواسعة متابعاً ظاهرة اهتمام الشعراء العرب بالعيون وتنويعاتهم الجميلة في وصف أفعالها وتأثيراتها لأصل إلى نتيجة توضّح خصائص الذوق الجمالي عند العرب، وتطوّره عبر العصور استجابة لحاجات جمالية ولّدتها أنماط المعيشة وتغيرات الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

وإذا كانت هذه الدراسة محاولة لفهم تجلّيات الشعراء المتنوعة جداً فلا أدّعي أنني بلغت بها الغاية المرجوة، فربما عرفت شيئاً وغابت عني أشياء. وجلّ ما أرجوه أن تكون وسيلة يستطيع بها الراغبون في البحث أن يركّزوا على هذه الظاهرة ويغنوها بمزيد من التقصي والتحليل.

والله ولي التوفيق

المؤلف

اللاذقية في ١٩٩٩/٢/٢

الفصل الأول

الفصل الأول

- مدخل إلى معرفة الجميل
- الجميل في كتب اللغة
- بين الجميل والحسن

مدخل إلى معرفة الجميل

لم يحظَ علم الجمال في عصر من العصور بمثل حاله في حضارة اليوم من مكانة وأهمية. فبعد أن كان فرعاً من فروع الفلسفة غايته البحث في الجمال عامة، وفي الإحساس الذي يتولد في النفس من خلاله. أصبح يتجه لأن يكون علماً من العلوم الوضعية، له أسسه المستقلة، وطرائقه، ومنهجيته. يقول بول فاليري: (نشأ علم الجمال يوم تفتّح حس الفيلسوف للملاحظة، وقلبه للشوق). إنَّ الشعور بالجمال وتذوّقه راسخان في الإنسان لا يتوقفان عن تغذية وعيه. وبحث الإنسان عن الجمال كما يقول «جيلسون»⁽¹⁾ موضوع رغبة وحب، رغبة في أن يحقق ذاته في عالم مؤنسين متناسق، وحب أن يرى نفسه فاعلاً مبدعاً بمعرفة قوانينه، ونظام حركته وتطوّره.

إنَّ الفلسفة الأفلاطونية تُعدُّ أصلاً لجذور كلِّ علم للجمال.

فالفيلسوف اليوناني «أفلاطون» يتصوّر في عالم الأفكار جمالاً مطلقاً لا يدرك بالبصر أو السمع، ونحن باسمه نحكم على هذه الأنواع غير الكاملة من الجمال في هذه الحياة الدنيا، لأننا ورثنا الذكرى المهمة لهذا المثال من حياة سابقة عشناها في محفل الآلهة.

(1) - جيلسون E. GILSON: مدخل إلى فنون الجميل - باريس 1963 ص5.

إنَّ ماهية الجمال توجد في النموذج في مثال الجمال الخالد الذي يضيء عالم الجمال كما تضيء الشمس العالم الأرضي. الجمال في ذاته مثال مطلق غير محسوس لا يمكن أن يسبقه مثال آخر أو أن يأتي بعده. ولكنه وحده الجدير بأن يسعى المرء إلى الاقتراب منه⁽¹⁾.

الجمال في ذاته هو الله عينه كما تشرح لنا نظريات الزهد في المأدبة⁽²⁾.

إنَّ عشق جسد جميل يؤدي إلى عشق النفوس الصالحة ومن ثم الأفكار، وأخيراً القدرة الإلهية نفسها. وبعد فإنَّ منبع كلِّ جمال هو جمال أول ينفت، بمجرد وجوده، الجمال في كلِّ الأشياء التي نسميها جميلة كما جاء في فيدون⁽³⁾. ويرى «سقراط» أنَّ الجميل يصير جميلاً بالجمال. حيث يقول في محاوره «فايدوس» إننا بعد أن هبطنا إلى هذا العالم عرفنا الجمال معرفة أوضح من معرفتنا لسائر الحقائق بواسطة أكثر حواسنا نوراً بواسطة البصر أدق أعضاء الجسم. وصار الجمال يشترك في كونه أكثر الأشياء وضوحاً، كما أنَّه أجدرها بالحب. غير أنَّ الإنسان يسعى طول حياته إلى الاتحاد بهذا الجمال غير المتجسّد، غير المادي. إنَّ البحث عن الجمال هو رغبة في الخلود، ونوع من إرادة التطهير التي تبعث في الإنسان الحب والغبطة.

(1) - ديس هويسمان - علم الجمال «الاستطيقا» ص 19.

(2) - حوار لأفلاطون حول الحب ينطلق من الجمال الجسدي، فالجمال الروحي، فالجمال الكامل الأبدي.

(3) - حوار لأفلاطون فيه آخر لحظات سقراط وآخر آرائه لتلاميذه قبل مقتله.

الفصل الأول

أما أفلاطون (205 - 270) فيعرّف الجمال بالوحدة وبالصورة الخالصة، والترتيب. فالجمال في الموجودات هو تماثلها وانتظامها؛ ذلك لأنّ الحياة صورة، والصورة جمال.

ويرى الدارسون أنّ المعرفة الجمالية لا تقتصر على معرفة الأشياء كما هي وفق مبادئ المعرفة العامة؛ إنّما تفرض وجود ماهية جمالية تعبّر عن الموجود، وعن صفته الجمالية المولّدة للشعور الجمالي الذي ندرك الموجود بموجبه.

ويتفق المثاليون على أنّ الجميل ينتمي إلى العالم الروحي الأمثل لكنّهم يختلفون على المنبع حيث تؤكد المثالية الموضوعية أنّ الجميل ذو طبيعة متكاملة مستقلة عن ذات الإنسان الذي يقتصر دوره على التأمل وحسب؛ لأنّ الجميل يفرض موضوعاً على العقل، وهو روجيه بطبيعته.

إنه بكلمة واحدة «مطلق»⁽¹⁾. ولا تبتعد الفكرة الدينية عن هذه النظرة؛ إذ تقوم على العلاقة الثنائية (الله - المخلوقات) فالله يخلق الأشياء الجميلة التي تتمتع بوجود مستقل وسامٍ وموضوعي في الله الخالق الأوحد.

أما المثاليون الذاتيون فيؤكّدون أنّ الذات الإنسانية هي المنبع الخالص للجمال، ويلخصون فكرتهم الأم بأنّ أية ظاهرة في العالم إنّما تكتسب قيمتها، وحقيقتها وجودها من خلال وعي الإنسان. فالوعي وحده هو القادر على خلق القيم الجمالية وتقديرها. والذات مصدر التقويمات كلّها. وهكذا لا يصدر الجميل الذي نتحدث عنه إلّا عنا ولا يوجد إلّا

(1) - أفلاطون - المأدبة، باريس 1964 ص72.

فيها، ومن أجلنا⁽¹⁾.

وينطلق «أولانيه» من مبدأ مثالي ذاتي يتعلق بطبيعة الجمال الحسية التي تؤثر في عاطفة الإنسان، وتؤكد فيه الشعور الجمالي فلا يمكن أن يكون الجميل مدركاً، ولا متذوقاً إلا من خلال الحواس ولاسيما السمع والبصر.

ويرى الفيلسوف «كنت» أن الجمال الطبيعي شيء، والجمال الفني تمثيل جميل لشيء ما؛ لشيء ليس جميلاً بصورة ضرورية طبقاً لجمال آخر في الطبيعة؛ إذ من الممكن أن نجعل القبح الطبيعي جمالاً فنياً.

فجمال الشيء لا يتوقف على طبيعته بل على حرية الإدراك والتخيل؛ تلك العملية تتم لدى أي ناظر فيما إذا وقع بصره على هذا الشيء مهما كانت طبيعته، خارجاً عن هذا الناظر.

هذا التقابل بين الشخص المفكر، وبين الشيء المفكر فيه هو عرض خاطئ للمشكلة الجمالية. والعرض الحقيقي ليس أمر فصل هذين العاملين بعضهما عن بعض؛ وإنما هو تعاونهما.

فلا إبصار بدون شبكة عينية؛ ولكن مع وجود الشبكة لا إبصار بدون شعاع ضوئي.

وجمال نغم حلوي، أو قبح لحن متنافر يتوقفان بعض الشيء على وعلى انفعالي الشخصي؛ ولكني مرتبط بهما أيضاً ماداماً يجعلانني أهتز نفسياً وجسمياً.

(1) - شارل لالو - مفاهيم علم الجمال - باريس 1952 ص2

الفصل الأول

وقد ظنَّ كثير من المشرِّعين في علم الجمال أنَّ عواطفنا تصبح أجمل كلما كشفت عن الجوهر العميق للأشياء أكثر مما تفعله الطبيعة التي لا تقدِّم لنا سوى مظاهر سطحية، أو ما يفعله العلم الذي لا يبرز سوى تجريدات اصطناعية⁽¹⁾.

وفي رأي «كنت» هناك أربع قضايا تحدّد الجمال⁽²⁾.

- 1 - الذوق: هو ملكة الحكم على شيء، وعلى طريقة تعبير متجردة سواء بالرضى أو بالرفض. ويكون جميلاً ما يعبّر بالرضى.
- 2 - يكون جميلاً ما يكون موضوع إعجاب؛ فالجميل يعجب دون مفهوم. أي دون اللجوء إلى منطق ضيق. يعني دون الحاجة إلى إثبات الجمال بحجة.
- 3 - الجمال هو شكل القصدية في الشيء الجميل. وإذا كان النافع يوحى بالهدف أو بالاستعمال فإنَّ الجميل على العكس لا يوحى بعلّة وجوده، بل يوحى بارتباط داخلي ضمن تكوين الأثر.
- 4 - يكون جميلاً ما يكون معروفاً هكذا دون مفهوم معين على أنه اكتفاء ضروري. إذاً فالجميل هو ما كان أبداً حائزاً على رضى شامل كافٍ ضروري.

ومن صفات الجمال التي حلّلها الفيلسوف «كنت» في كتابه «نقد الحكم»⁽³⁾ أنه موضوع إمتاع نزيه خالص. ويتضح معنى ذلك عند التفريق بين الشيء الجميل، والشيء الشهى، أو اللذيد، وبينه وبين

(1) - شارل لالو - مبادئ علم الجمال - الصفحات 22 - 39.

(2) - أندريه ريشار - النقد الجمالي - ترجمة هنري زغيب ص 210.

(3) - د. عبد الكريم اليافي - دراسات فنية في الأدب العربي - الصفحات (66 - 67).

الشيء الجيد، أو النافع؛ فقد نحكم على شيء فنقول: شهى، أو لذيذ إذا أمكن أن يجلب لذة وسروراً. وقد نحكم عليه فنقول: جيد، أو نافع إذا استطاع أن يسدَّ عوزاً، أو يقضي حاجة.

ولكننا في حكمينا إنما نصدر عن مطمع؛ فليس كلا الحكمين نزيهاً؛ لأنَّ اللذيذ والنافع يلائمان رغباتنا، ويرضيان ميولنا. بيد أن الحكم الصادر عن الذوق الفني خالٍ من هذه الشوائب، حاصل في حالة تأمل محض.

وقد أشار «كنت» في معرض تحليله للجمال وصفاته، إلى أنه يتعين بالتناسب القائم بلا هدف أو بحسب تعبيره «هو غائية تلمح في الشيء الجميل دون تصور أي غاية».

وتحسن الإشارة إلى أنَّ هذا القول يشكّل قالباً جديداً تلوح منه الفكرة القديمة الزاعمة أنَّ الجمال هو الوحدة التي تلمح من خلال الكثرة، أو الكمال الملموح لمحا مبهماً.

يقول ليبنتز «إنَّ الجمال تصوّر مبهم للكمال».

أما الفيلسوف الألماني «هيجل» الذي تزخر مؤلفاته في علم الجمال بشروة لا ينفد معينها فيرى أنَّ العقل وحده هو القابل للحقيقة. وكل ما هو جميل يجب أن يكون حقاً وصدقاً جميلاً. الخير الكلي حق كلي وبالتالي جمال كلي.

وعندما نقول: إنَّ الجمال فكرة نقصد بذلك أن الجمال والحقيقة شيء، فالجميل لابدُّ بالفعل أن يكون حقيقياً في ذاته. والفكرة بالفعل حقيقية لأنها متصورة في الفكر بصفاتها هذه بمقتضى طبيعتها، ومن

الفصل الأول

وجهة نظر شموليتها؛ غير أن المفروض بالفكرة أن تحقق نفسها خارجياً، وأن تحوز وجوداً محدداً من حيث هي موضوعية طبيعية، وروحية.

وبقدر ما يبقى المفهوم غير قابل للانفصال عن تظاهرة الخارجي فإنَّ الفكرة لا تكون حقيقية فحسب بل جميلة كذلك. على هذا النحو يتحدّد الجميل بأنه التجلي المحسوس للفكرة. فالجمال هو ما يميز الهيئة بعينها سواء في حالة السكون أم الحركة بصرف النظر عن تكيف هذه الحالات مع تلبية الحاجات، وبصرف النظر عما يمكن أن يكون في الحركات نفسها من جانب مؤقت، وعارض. غير أنَّ الجمال لا يمكن لغير الشكل أن يعبر عنه؛ لأنَّ الشكل هو وحده التظاهر الخارجي الذي بواسطته نضع مثالية الكائن الحي تحت متناول حواسنا، وتأملنا الحسيين.

ويذهب «هيغل»⁽¹⁾ إلى أنَّ الفن إذا بلغ غايته القصوى فإنه يشترك مع الدين، والحياة في تفسير الإلهي، وإيضاحه. وكذلك بالنسبة لأكثر المطالب الإنسانية عمقاً، وأشدَّ حقائق الروح اتساعاً⁽²⁾. أما الصوفيون فيفضلون الموقف السلبي القائل بعدم جود منهج لعلم الجمال، ويذهبون إلى أن العقل وحده لا يكفي لفهم الجمال؛ بل لابد أن نقف خارجاً عن هذا العقل في حالة من الانجذاب للكشف عن حقائق غير حسية.

وباسم منهج جمالي علمي ينص المبدأ الأساسي للجمالية الماركسية على وجوب معاملة الفن كأيدولوجيا، وعلى تشديد اللهجة على الطابع الطبقي للفن؛ لأن هناك رابطة محددة بين الفن والشروط المادية (مجمل علاقات الإنتاج).

(1) - هيغل - فكرة الجمال - ترجمة جورج طرايشي الصفحات 33 - 51.

(2) - دنيس هويسمان - علم الجمال ص 45.

فالعامل الفني يحقق وحدة متناغمة بين الشكل، والمضمون. لكنّ المضمون بحسب هذا المنهج هو الذي يحدّد الشكل؛ لأن لكل تشكيلة اقتصادية للمجتمع شكلاً فنياً يتطابق معها، ويعبّر عنها بهذه الصورة أو تلك. فالممارسة التاريخية الاجتماعية هي التي ولّدت في رأي ماركس (أذنًا موسيقية وعيناً حساسة لجمال الأشكال، أي أن الجميل لا يكون خارج الواقع المحسوس).

ويرى «هربرت ماركوز»⁽¹⁾ في كتابه «البعد الجمالي» أنّ علم الجمال ذاتي، وموضوعي في آن واحد. فالجمال الذي نتحدّث عنه هو فينا وبنا ومن أجلنا. والأشياء لا تنصف بالجمال أو القبح إلا من خلال تصوّراتنا لها، وتفهمنا إياها. فهي ماهي عليه، وكل نعت خارجي عنها لا يأتيها إلا منا. وهكذا فإن مغيب الشمس يثير في الرجل العامي فكرة العشاء، ويثير في العالم فكرة تحليل الضوء. وليس مغيب الشمس جميلاً إلا عند الذي ينظر إليه بعيني فنان وهو مأخوذ داخلياً بتأمله.

أما الناقد «جيروم ستولنتر» فيشير في كتابه «النقد الفني» أثناء مناقشته فكرة الجمال إلى أنّ الوجه الجميل والمتناظر الشكل يمكن أن يكون بارداً، أو عديم التعبير. فالملدول الروحي يجب أن يتجسّد من خلال ماهو أساسي وجوهري فيه. يث الحياة في التظاهر الخارجي من أوله إلى آخره الروح المتجسدة في الواقع الفعال.

إن إدراك الجميل في الفن لا يتم دون الأخذ بعين الاعتبار طابعي الإبداع الفني «الأسلوب والمضمون». إذاً الفن جميل دوماً. وربما فسر

(1) - هربرت ماركوز - النقد الجمالي - ترجمة جورج طرايشي ص 13.

الفصل الأول

لنا ذلك سبب إطلاق مصطلح الفنون الجميلة الذي يبدو وكأنه مؤسّس ميدانياً على هذا التقويم الجمالي⁽¹⁾.

فالفن يخطب إعجاب المتذوقين؛ ليس لأنه يصور موضوعات جذابة أو جميلة فحسب إنما لأنه يحقق من جانب آخر «الإغراء مع القبح، والسحر مع المقرّف».

وهذا لا يعني أنّ الفن يجملّ قبح الواقع؛ وإنما يصوّره بتعبير جميل. وهذه نقطة دقيقة يجب توكيدها. فمزية الفن هي: أنه يجعل ظواهر الواقع أكثر بروزاً دون تغيير قيمتها الجمالية. وهكذا فإنّ الوصف البليغ «لأحدب نوتردام» لـ «لهيغو» لا يجملّ هذه الشخصية بل على العكس يعبّر قصدياً عن قبحها.

ولو تساءلنا عن الجهاز الذي تتبدّى فيه النفس من حيث هي نفس لذهب بنا الفكر حالاً إلى العين؛ ففي العين تتركّز النفس؛ لأنها لا تبصر عبر العين فحسب؛ بل من هذه الأخيرة يمكن أيضاً إبصارها.

إنّ مهمة الفن هو العمل على أن يغدو الظاهراتي في مختلف نقاط سطحه هو العين، مقر النفس، كاشفة الروح. ولعلنا نذكر البيتين الشعريين المشهورين اللذين ينادي فيهما «أفلاطون» النجمة ASTER بالقول:

حين تنظرين إلى النجوم، وانجمتاه.

أودّ لو كنت أنا السماء ذات المثة عين، لأتأملك من عالي سمائي.

(1) - ستولتيز - النقد الفني ص287.

ولعله في مقدورنا لو قبلنا المعنى أن نقول: إن الفن يجعل من كل وجه من وجوهه «أرغسا»⁽¹⁾ له ألف عين من أجل أن تبدئ النفس والروح في جميع نقاط الظاهرية⁽²⁾. ولعل من فوائد هذه الدراسة أنها ستحررنا من أثقال قضية النسبية الجمالية. وإذا كان سيتاح لنا أن نتحسس الوجود الحقيقي لتبدل الذوق عبر العصور فإننا سنجد تفسير ذلك في وظائف الفن التي تبين أن التغيير الحادث في ذوق جماعة بشرية يتوافق مع حاجة جمالية جديدة عند هذه الجماعة. وهذه الحاجة الجمالية تأتي مباشرة بعد الحاجات الانتفاعية كالمأكل والمسكن عند بعض المجتمعات البشرية.

إن الدوافع الجمالية قد تكون مختلفة وكثيرة. ومن أبرزها⁽³⁾.

- 1 - إننا بحاجة إلى شيء من معايشة الفن؛ لأننا بحاجة إلى أن نجعل حياتنا على قدر من الجمال والنبيل.
- 2 - عندما تطبق علينا الهموم من كل جانب يحق لنا أن نفرّ منها إلى خلوة حميمة مع الفن بأنواعه.
- 3 - وقد نلجأ إلى الفن أحياناً لإقامة علاقات بيننا وبين الآخرين؛ لأنها تتيح لنا اكتشاف مسالك في حياة الناس.
- 4 - وأحياناً نشعر بجوع وعطش إلى الأحاسيس الملتهبة. وهو شعور أقرب ما يكون بالطبع إلى فكرة التطهير النفسي.

(1) - «أرغس» أمير من أمراء مدينة «أرغوس» تقول الأسطورة: إنه كان له مئة عين وإن خمسين منها تبقى مفتوحة على الدوام.

(2) جيروم ستولتزر - النقد الفني ترجمة د. فؤاد زكريا ص 425.

(3) - أتيان سوريو - الجمالية عبر العصور - ترجمة د. ميشال عاصي - الصفحات 20 - 21.

الفصل الأول

5 - وقد نجد أنفسنا مدفوعين إلى البحث عن مشاعر غريبة من شأنها أن تفتح لنا أبواب كنوز عاطفية فيها من صفاء الجوهر، وخصائص السمو والعظمة ما يجعلها تشيع في داخلنا خلال فترة معينة كل مانود أن نراه ممتزجاً بلحمة وجودنا وسداه.

هناك من يرى أن المنفعة هي أساس التقدير الجمالي، وأنا نحكم على الشيء بأنه جميل لأنه نافع وهذا الرأي لا يقوم على أساس صحيح.

وهناك مدرسة ثانية ترى أنه يجب التمييز بين صفة الجمال وبين المنفعة.

فقد يكون الشيء غير نافع ومع ذلك جميل كالعشب السام مثلاً والحية الرقطاء، تقول: إنه جلد جميل ومع ذلك فإن الحية ذاتها ضارة.

ونحن في الواقع لانصف الفن الجميل بالصواب والخطأ وكل ما يمكن وصفه به من هذه الناحية هو أنه سلوك، أو تعبير صادر من ناحية الفنان.

ولهذا فإننا يجب أن نؤكد بطريقة حاسمة الفصل بين القيمة الجمالية والأخلاق.

ثمة شعور بالجمال وثمة حكم بشعور الفرد أو إحساسه بهذا الجمال سواء كان الحكم تحليلياً أم تركيبياً.

ولكن الحكم هنا يختلف عن الحكم الأخلاقي كما يختلف عن الحكم المنطقي.

فبينما نجد الحكم الأخلاقي يتخذ الإرادة والواجب أساساً له نجد أنه يتعذر إصدار حكم مطلق من الناحية الجمالية؛ لأن تعدد الأحكام الجمالية يرجع إلى الاختلافات العديدة بين أذواق الناس وإلى تنوع اهتماماتهم. إن اختلاف النظرة للجمال يعود إلى تعدد آراء الفلاسفة وعلماء الجمال في كل أمة.

فالفلاسفة يصدرون أحكامهم التي تعبّر عن روح أمتهم. فمثلاً الإنكليز تجريبيون، والألمان مثاليون، والفرنسيون عقليون. والجمال عند الهنود يتمثل في شفاء غليظة منتفخة، وأنف مفرطح ضخم، وأهل ييرو ينسبون له الآذان الكبيرة..

وقد يصيب التطوّر هذه الحاجات الجمالية مع الزمن على صعيد الفرد والجماعة؛ فتختلف الأذواق وتحوّل باختلاف العلاقات، وأنماط المعيشة، والتغيّرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

فلو أخذنا الفن أداة للحكم على الحاجات الجمالية لوقتنا الحاضر لوجدنا أنها أصيبت بتغيّرات جذرية؛ فالزائر الذي يتجوّل في متحف للفن الحديث إذا انتقل من قاعة تضم لوحات انطباعية إلى قاعة أخرى تضم لوحات حديثة من الفن التجريدي أو التجسيمي لاجتاحه، ولاريب، شعور بالانتقال من عالم إلى آخر، وإحساس بالغربة عميق.

إنّ الانقلاب الكبير يستجيب لحركة ضرورية عميقة لافترق منها. وهذه الحركة ولدت داخل الفن استجابة لعوامل التطوّر والميل الجارف إلى التجديد.

الفصل الأول

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ حاجات الناس الجمالية كانت في جميع الأزمنة أكبر من حدود الفن، وأوسع من أن تشبعها آثاره. ولطالما بحثت تلك الحاجات عن كفايات لها عبر أشياء كالأسلحة والملابس والعربات والجياد والأثاث مما لا يمكن أن يكون من أعمال الفن، والآثار الجميلة.

ولو تأملنا النظريات الجمالية لتكوّنت لدينا فكرة جوهرية مفادها أن الجمال يمثل نزوعاً إلى الكمال المتحرر في قليل أو كثير من قيود الوجود المادي، أو على الأقل الساعي إلى توحيد ظواهر الكون في مفهوم شامل متآلف العناصر.

لماذا نريد من إحساساتنا أن تتصل بكل ماهو جميل؟ فنختار من الطبيعة أبهى أماكنها لقضاء العطل، ونزيّن ماحولنا بمختلف فنون العمارة والديكور. ونزيّن أنفسنا بالثياب والروائح الطيبة، وأحاديثنا بالأدب والشعر، ونضفي على أجواء عزلتنا مانختاره من أعذب الألحان؟

هل هذا كلّهُ من أجمل البهجة التي يعطينا إيّاها الشعور بالجمال؟

وهل السعادة محصورة بجمال الروح والمكان الذي تقيم فيه؟

وهل يظهر الجمال إلّا للمشاعر الحساسة ليداوي الرغبات إذا شوّشتها تدخلات الحياة، وقبح الجانب السيء من الوجود؟

الجمال دعوة للتأمل في المعطيات الفنية سواء تلك التي صنعها الله بالطبيعة ومن جملتها الإنسان، أو تلك التي حاكى فيها الإنسان صنعة ربه.

العيون في الشعر العربي

هذه الدعوة إلى التأمل دعوة لإبهاج النفس، والاندفاع نحو الأمل.
وفي كل أمل عنصر تحسين.

وفي حدود الأفق الأخير للأمل يتحدد مصير الإنسان.
إنَّ انجذابنا نحو الجمال هو الخطوة الأولى نحو مصيرنا!!

الجميل في كتب اللغة

للجميل في كتب اللغة دلالتان:

أما الأولى فحسّية

وأما الثانية فمعنوية

إنَّ الجميل هو الشَّحْم يُذاب ثمَّ يُجمع، والجميل هو ضدُّ القبيح أيضاً⁽¹⁾.

ويشير ابن قتيبة (ت 276هـ) إلى المناسبة بين الدالتين بقوله:

«والجميل الودك بعينه. ووصف الرجل به يُراد أنَّ ماء السَّمْن يجري في وجهه»⁽²⁾. ويبدو أنَّ الدلالة الحسّية للفظ الجميل كانت قد بدأت بالتراجع في الشعر العربي منذ أيام الجاهلية الأخيرة تاركةً مواقعها للدلالة المعنوية.

لقد استعملها أبو خراش الهذلي بمعنى الودك في قوله:

يقاتِلُ جوعهم بِمُكَلَّلَاتٍ

من القُرْئِي يَرعِبها الجميل⁽³⁾

(1) - لسان العرب، وتاج العروس وجمهرة اللغة ص110.

(2) - أدب الكاتب ص83.

(3) - ديوان الهذليين 141/2 المكَلَّلَات: الجفان المتلعة - الفرتي: الخبز الغليظ - يَرعِب: يملأ.

أما الدلالة المعنوية فتبدو أكثر دوراناً في أشعار القدماء.
يذكر على سبيل المثال قول أبي خراش نفسه معتذراً إلى زوج أخيه
المقتول عروة:

ولا تحسبي أنني تناسيت عهدہ
ولكن صبري يا أميم جميل
وقول ذي الإصبع العدوانى مخاطباً ولده أسيداً:
أأسيد إن مالا ملكت فسر به سيراً جميلاً⁽¹⁾:
وقول عبد قيس بن خفاق ينصح ولده جبيلاً:
وإذا تشاجر في فؤادك مرةً
أمران فاعمد للأعف الأجل⁽²⁾

(1) - ديوانه ص72.

(2) - الأصمعيات ص23.

بين الجميل والحسن

ليس الجمال بمـُـزِرٍ
فاعلم وإن ردّيت يردا
إنَّ الجمال معادنٌ
ومناقبٌ أورثن حمدا
عمرو بن معد يكرب

وفي كتاب الأغاني القصة التالية:
«قالت سكينه لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك».
وقالت عائشة؛ بل أنا. فاخصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة فقال:
أما أنتِ ياسكينه فأملح منها.
وأما أنتِ ياعائشة فأجمل منها. فقالت سكينه: قضيت لي والله⁽¹⁾.
تدلُّنا هذه القصة على نوعين للحسن وهما الملاحه والجمال.
وإذا أردنا أن نتفهّم معاني كلٍّ من هذين النوعين وجدنا ذلك

(1) - ج 14 ص 162.

في أخبار هاتين السيّدتين.

فقد جاء في الأغاني⁽¹⁾:

« كانت سكيّنة عفيفة سَلِمة برزّة من النساء تجالس الأجلّة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزّاحة. ويُروى أنها كانت أحسن الناس شعراً، وكانت تصفّ جمّتها تصفيفاً لم يُرَ أحسن منه؛ حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمّة تسمّى السكيّنية».

وأما عائشة فكانت بديعة حقّاً مثلاً في تناسب التكوين واعتدال الملامح، وانسجام الأعضاء كما يتصوّر الذوق العربي إذ ذاك.

ونجد في عيون الأخبار ما يؤكّد هذا التفسير.

قالت امرأة خالد بن صفوان له يوماً: ما أجملك!! قال: ماتقولين ذاك؛ ومالي عمود الجمال، ولاعليّ رداؤه، ولابرنسه.

قالت: ماعمود الجمال، ومارداؤه، ومابرنسه⁽²⁾؟

قال: أمّا عمود الجمال فطول القوام في قصر، وأمّا رداؤه فالبياض ولست بأبيض.

وأما برنسه فسواد الشعر وأنا أصلع. ولكن لو قلت: ماأحلاك!! وماأملحك كان أولى.

وعدّد ابن المقفع في «الأدب الصغير» أموراً لاتصلح إلّا بقراءتها

(1) - ج 2 ص 159.

(2) - الأغاني. ج 4 ص 21.

الفصل الأول

ومنها أنّه «لا ينفع الجمال بغير حلاوة»⁽¹⁾ وهذا يدلُّ على أنّ الجمال غير الحلاوة، أو أنّه بها يتمُّ نفعه ويكتمل رونقه.

وقد كتب الوزير الحافظ ابن حزم رسالة (في مداواة النفوس، وتهذيب الأخلاق) جاء فيها:

«ورب جميل الصفات على انفراد كلّ منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن، ولا رائق، ولا حلو».

(1) - رسائل البلغاء - ص 28.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

- معاني العين
- ثقافة العين وأهميتها
- أنواع النظر

معاني العين

العين^(١) حاسة البصر والرؤية. والجمع أعينٌ وأَعْيُنَاتُ الأخيرة جمع الجمع والكثير عيون، وتصغير العين عُيَيْتَةٌ ومنه قيل ذو العينتين للجاسوس.

والعَيْنُ: الذي يُبْعَث لِيَتَجَسَّس الخبر.

قال تعالى: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي: لَتَرَى مِنْ حَيْثُ أَرَاكَ﴾

وفي التنزيل:

«واصنع الفلك بأعيننا» بإبصارنا إليك، وعين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحداً أن يقول: كيف هي ماصفتها؟

والعَيْنُ: أن تصيب الإنسان بعين.

وعان الرجل يعينه عيناً فهو عائن والمصاب مَعِينٌ على النقص ومَعِينٌ على التمام.

قال الزجاج:

المَعِينُ: المصاب بالعين - والمَعِينُ الذي فيه عين:

قال عباس بن مرداس:

(١) - ابن منظور - لسان العرب. الجزء الثالث ص 301.

قد كان قومك يحسبونك سيِّداً

ولإخال أنك سيِّدٌ مَعْيُونٌ

ورجل مَعْيَانٌ وَعْيُونٌ شديد الإصابة بالعين والجمع عُيْنٌ وَعَيْنٌ ويُقال
أُتيت فلاناً فما عُيْنٌ لي بشيء، وماعِيَتني بشيء أي ما أعطاني شيئاً
والعَيْن والمعاينة النظر. رآه عِياناً: أي مواجهةً.

وتعَيَّنت الشيء: أبصرته. ورأيت عاتنة من أصحابه: أي قوماً
عاينوني. نَعِم الله بك عينا: أي أنعمها.

الْعَيْن: عظم سواد العين وسَعَتها.

ويُقال: أعين: إذا كان ضخم العين واسعها، والأنثى عِناء والجمع منها
عَيْنٌ ومنه قيل لبقر الوحش عَيْن صفة غالبية. قال تعالى ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾.
وفي الحديث: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لِمَجْتَمَعاً لِلْحُورِ الْعَيْنِ».

وعُيُون البقر: ضرب من العنب الأسود ليس بالحالك، ولا صادق
الحلاوة؟

وثوبٌ مَعَيْنٌ: في وشيه ترايع صغار تشبّه بعيون البقر الوحشي.

فلانٌ عَيْنُ الجيش: رئيسه. الاعتيان: الارتياح.

وبعثنا عينا: أي طليعة يعتاننا ويعتان لنا أي يأتينا بالخبر.

العين: الجاسوس.

أعيان القوم: أشرافهم وأفاضلهم على المثل بشرف العين الحاسة.

الفصل الثاني

العَيْن: عين الماء، وينبوع الماء الذي ينبع من الأرض. والجمع أعْيُنٌ وعُيُونٌ.

وفي الحديث: «خير المال عينٌ ساهرةٌ لعين نائمةٍ».

أراد عين الماء التي تجري، ولا تنقطع ليلاً ونهاراً، وعين صاحبها نائمة؛ فجعل السهر مثلاً لجريها.

عانتِ البئر عيناً: كثر ماؤها.

العَيْن: الجديد - العَيْن: الناحية.

عين الشمس: شعاعها الذي لا تثبت عليه العين.

العَيْن: المال الحاضر - النقد.

والعَيْن: في الميزان المِثْل: قيل هو أن ترجح إحدى كفتيه على الأخرى.

يُقَال: مافي الميزان عَيْن (أي ميل).

وعَيْنُ الشيء: حقيقته.

جاء الحق بعينه: أي خالصاً واضحاً.

وعين كلِّ شيء: خياره، ونفسه، وحاضره، وشاهده.

لا أطلب أثراً بعد عَيْن: أي مُعَايَنَةً.

لا أترك الشيء وأنا أعاينه، وأطلب أثره بعد أن يغيب عني. أصله أن

العيون في الشعر العربي

رجلاً رأى قاتل أخيه، فلما أراد قتله قال:
أفتدي بمائة ناقة فقال: لست أطلب أثراً بعد عين. وقتله.
الأعيان: الإخوة يكونون لأب وأم ولهم أخوة لِعَلَّات فعلت ذلك
عَمَدَ عين:
إذا تعمّده بجدي وتعيين.

ثقافة العين وأهميتها

إنَّ للعيون لغة خاصة⁽¹⁾ ومن يفهمها يدرك علماً كثيراً في وقت قصير، ويفتح عينه على آفاق جديدة من ثقافة العين وتربيتها.

فالمناظر الطبيعية، والألوان المنسجمة، والوجوه الجميلة ثقافة بصرية ممتعة يمكن تعليمها للأطفال قبل بلوغهم مرحلة الكلام؛ لأنَّ ذلك يكون لهم إحساسات جمالية مبكرة، ويريحهم في مهودهم؛ فينشرحون للحياة، ويتذوّقونها بعيونهم وهم صامتون.

واللغة المرئية تدرب العيون على الرؤية والتمييز فإذا كبر الصغار ظلَّت لهم دربتهم قوة تحمي العيون إلى آخر العمر سليمة نقّادة.

يركن الطفل في حضن الأم ساعات وهي تحنو عليه بدفئها وحنانها، تبادلها النظرة والابتسامة.

إنَّ تربية العيون تعطي صاحبها ثروة من الحب والجمال تفوق كثيراً ما يكسبه عن طريق سواهما.

الحواس جميعها مهمة في حياة الإنسان؛ غير أنَّك بنظرة واحدة من عين مثقّفة جميلة تقرأ ما لا يقرأ في كتب عديدة خصوصاً إذا كانت العين الأخرى ذات ثقافة عليا من المستوى ذاته.

(1) - أسعد علي - مسرح الجمال والحب والفن، ص 157 - ص 158.

وقد فطن الشعراء إلى ماتقزّره العيون من العلاقات الاجتماعية فقال
قائلهم:

والعين تعرف من عيني محدثها

إن كان من حزبها أو من أعاذها

ولو تأمل الإنسان في عينيه، والمقدرة التي أودعها الله فيهما لتعلم
أموراً كثيرة؛ فبالعين يرتفع الإنسان إلى السماء بلمحة.

ولو فكّر بذلك لعرف أنّ عينيه تدلّانه على طريق المقدرة فيه،
وتلهمّانه الطموح ليدرك الأبعاد المديدة في وقت قصير.

في سورة طه الآية «39» «وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على
عيني».

يصنع الله عبده ورسوله على عينيه؛ أي يرّيه محفوفاً بعنايته
وحفظه وإكرامه. وجمال التصوير في الجمع بين المنظر الحسّي والمنظر
النفسي.

فالعين محفوفة بالأجفان والأهداب والحواجب لأنها حساسة وأثيرة
وعليها تقوم الصناعة التربوية.

هنا إشارتان:

الأولى: تعني أنّ من نرّيههم لهم علينا حق الرعاية والحفظ كما
لعيوننا.

وفي ملاحظة التكوين الجمالي للعيون ندرك أية رعاية إلهية أحاطت

الفصل الثاني

بالعين فكوتتها من طبقات، وغطتها بأجفان، وظللت الأجفان بأهداب، ورفعت فوقها ستار الحاجبين.

الثانية: تعني أنَّ الإنسان الذي تريه مثل العين سريع العطب. وهذا الإنسان مثل العين قدرة خارقة إذا رُعيت تنطلق في الأبعاد، وتدرك مافي الآفاق، وتضيء مافي النفس. هذا سرُّ المنهج العيني الذي يحمل العشاق على القول: «أحبيته من أول نظرة».

العين والعون صديقان. والنفوس المتعطشة للحب تجد في العين ينبوع حنان ومجبة فتلقي ذاتها إليه لترتوي من الظمأ. وفي ظلال العينين يتعلم الإنسان معنى الحب، وتبسط الأزاهير أيديها للنسيم، ويرقص العشب على إيقاع الندى، وتكتب الأغصان أناشيد الطيور، وألحان الحياة.

أنواع النظر

وللنظر أنواع⁽¹⁾: فإذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رَمَقَهُ وإذا نظر من جانب أذنه قيل: لَحَظَهُ. فإن نظر بعجلة قيل: لَحَحَ. فإن رماه ببصره مع حدة قيل حدججه.

وفي حديث ابن مسعود «حدّث القوم ما حدجوك بأبصارهم» فإن نظر إليه بشدة وبحدة قيل: أرشقّه، وأسْفُ النظر. إليه فإن فتح عينيه لشدة النظر قيل: حدّق. وإن انقلب حملاق عينيه قيل: حملق. فإن أعاره لحظ العداوة قيل: نظر إليه شزراً. وإن نظر إليه بعين المحبة قيل نظر إليه نظرة ذي علق. وإن فتح عين مهلّد قيل حمج، وإن فتح عينه لايطرف قيل شخص والإشارة⁽²⁾ بمؤخرة العين الواحدة نهى عن الأمر، وتفتيرها إعلان بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجّع والتأسّف. وكسر نظرها آية الفرح. والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه. وإذا تهَيَّأ الرجل للبكاء قيل: أجهش. فإن امتلأت عينه دموعاً قيل: اغرورقت، وترقرقت. فإذا سالت قيل: دَمَعَتْ، فإذا صاح مع البكاء قيل: أعول. فإذا حاكت دموعها المطر قيل: همت فإذا كان البكاء صوتاً قيل: نحب ونشج.

(1) - أبو منصور الثعالبي - فقه اللغة وسرّ العربية - ص 123 - 125.

(2) - ابن حزم الأندلسي - طوق الحمامة - ص 136.

يقول الوليد بن يزيد:

مازلت أرمقها بعيني وامي

حتى بصرتُ بها تقبّل عودا

فسألت ربّي أن أكون مكانه

وأكون في لهب الجحيم وقودا

وسمع ابراهيم بن المهدي غناء جارية⁽¹⁾:

أشرت إليها هل عرفت مودّتي؟

فردّت بطرف العين إنّي على العهد

فجدت عن الإظهار عمداً لسرّها

وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

- أليس عجيباً أن يبتأ يضمّني

وإياك لانخلو ولانتكلم

سوى أعين يشكو الهوى بجفونها

وتقطع أنفاس على النار تضرم

إشارةً أفواه وغمز حواجب

وتكسير أجفان وكفّ يسلم

وقد أورد أبو حاتم⁽²⁾ عن الأصمعي عن يونس بن مصعب قال: أتاني

(1) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج 3 - ص 201.

(2) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج 7 - ص 97.

رجل من قریش يستشيرني في امرأة يتزوجها فقلت: يا ابن أخي: أقصيرة النسب أم طويلة؟ فلم يفهم عني.

فقلت: يا ابن أخي: إنني أعرف في العين إذا عرفت، وأنكر فيها إذا أنكرت، وأعرف فيها إذا لم تعرف، ولم تُنكر. أما إذا عرفت فتتجاوز، وأما إذا أنكرت فتجحظ، وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فتسجوه وقد رأيت عينك ساجية. فالقصيرة النسب هي التي إذا ذكرت أباهما اكتفت به. والطويلة النسب هي التي لا تعرف حتى تطيل في نسبتها. فإياك أن تقع في قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نفسك فيهم.

ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضةً لزوجها فأية ذلك أن تكون عند قربه منها مرتدة النظر عنه كأنما تنظر إلى إنسان وراءه. وإذا كانت محبةً له لاتقلع عن النظر إليه.

قال المبرد: أردت أن أعلم كيف حالي عند امرأتي، فالتفتُ وقد نهضتُ من بين يديها فإذا هي تكلح في قفائي أي (تكشّر في عبوس). وإدمان النظر من علامات الحب. فالعين باب النفس وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة عن ضمائرها. وكثيراً مايكون لصوق الحب بالقلب من نظرية واحدة.

فالشاعر يوسف بن هارون⁽¹⁾ كان مجتازاً عند باب العطارين بقرطبة. وهذا الموضع كان مجتمع النساء. فرأى جاريةً أخذت بمجامع قلبه، وتخلّل حبّها جميع أعضائه. فانصرف عن طريق الجامع، وجعل

(1) - ابن حزم الأندلسي - طرق الحمامة - ص 122 - 123

الفصل الثاني

يتبعها، فلما نظرت منه منفرداً عن الناس لاهمة له غيرها انصرفت إليه وقالت: مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظم بليته بها. فقالت له: دع عنك هذا، ولا تطلب فضيحتي فلا مطمخ لك في البتة، ولا إلى ماترغبه سبيل. فقال: إني أقنع بالنظر. فقالت: ذلك مباح لك. فقال لها: ياسيّدتي أحرّة أم مملوكة؟ قالت مملوكة، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: خلوة، قال ولمن أنت؟ فقالت له: علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحال، فقال لها: ياسيّدتي، وأين أراك بعد هذا؟ قالت: حيث رأيّنتي اليوم في مثل تلك الساعة من كلّ جمعة.

قال يوسف بن هارون: ولم أرها بعد ذلك، ولأدري أسماء لحسّتها، أم أرض بلعّتها. وإنّ في قلبي منها لأحرّ من الجمر.

ويقول ابن حزم الأندلسي في كتابه «طوق الحمامة» فمن أحبّ من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر، ومخبّر بسرعة السلوّ وهكذا في جميع الأشياء: أسرعها نمواً أسرعها فناً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً. ثم يتابع قائلاً: وإني لأطيل العجب من كلّ من يدّعي أنّه يُحب من نظرة واحدة، ولا أكاد أصدّقه ولا أجعل حبه إلّا ضرباً من الشهوة.

وقد أنشد ابن حزم فيمن أحسّ من نفسه بابتداء هوى، أو توجّس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور فاستعمل الهجر، وترك الإمام، لعلّ يزيد ما يجذّ فيخرج الأمر عن يده⁽¹⁾:

(1) - ابن حزم الأندلسي - طوق الحمامة - ص 125

سأبعدُ عن دواعي الحبِّ إنِّي
 رأيت الخزم من صفة الرشيد
 رأيتُ الحبَّ أوَّلُه التصدِّي
 بعينك في أزاهير الخلود
 فبينما أنت مغتبط مخلَّى
 إذا قد صرت في حَلِّي القيود
 كمُغتَرٍ بضحضاحٍ قريبٍ
 فزلُّ فغاب في غَمْرِ المَدُودِ
 ويرى ابن حزم الأندلسي، أنَّ جوهر العين أرفع الجواهر، وأعلاها
 مكاناً، لأنها نورية لا تدرك الألوان بسواها، ولا شيء أبعد مرمى ولا أنأى
 غاية منها، لأنها تدرك بها أجرام الكواكب التي في الأفلاك البعيدة.
 وتُرى بها السماء على شدة ارتفاعها وبعدها. وليس ذلك إلا
 لاتصالها في طبع خلقتها بهذه المرأة، فهي تدركها وتصل إليها بالصغر.
 لاعلى قطع الأماكن، والحلول في المواضع، وتنقل الحركات، وليس هذا
 الشيء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يدركان إلا بالمجاورة، والسمع
 والشم لا يدركان إلا من قريب.
 ويوضح أنَّ العين تنوب عن الرسول، ويدرك بها المراد.
 فالحواس الأربع أبواب إلى القلب، ومنافذ نحو النفس.
 والعين أبلغها دلالة، وأوفاهها عملاً.
 وهي رائد النفس الصادق، ودليلها الهادي، ومرآتها المجلوة التي بها

الفصل الثاني

تقف على الحقائق وتميّز الصفات، وتفهم المحسوسات.

وقد قيل: ليس المخبر كالمعاین.

ولأبي علي بصير قوله في النظر الخلس، والحب الصامت⁽¹⁾:

ألت بنا يوم الرحيل اختلاصةً

فأضرم نيران الهوى النظر الخلس

فخاطبها صمتي بما أنا مضمّر

وأنبست حتى ليس يُسمَع لي حس

أمّا العباس بن الأحنف باعث العذرية الأموية في عصر بني العباس

فيتساءل كيف يخفي سره إذا غَضَّ طرفه عن النظر إلى وجه الحبيبة؟

مادامت الدموع تجري فتبوح بالسرائر.

هبوني أغضّ إذا مابدت

وأملك طرفي فلا أنظر

فكيف استتاري إذا مالدمو

عُ نطقن فُبُحن بما أضمر

ويرى الشاعر خالد الكاتب أنّ العين ظالمة لاتعرف العدل⁽²⁾:

نظرت إليّ بعين من لم يعدل

لما تمكّن طرفها من مقتلي

(1) - ابن قتيبة - الشعر والشعراء - ص337.

(2) - زهر الآداب - ج2 - ص239.

لما رأت شيباً أَلَمَّ بمفرقي
صدت حدود مفاري متعجل
وظللت أطلب وصلها بتُمْلِقِ
والشيب يغمزها بألاً تفعلي

الفصل الثالث

- محاسن العين
- أوصاف العيون الجميلة:
 - الفتور
 - العيون الكحيلة الساحرة
 - العين الحوراء
 - العين الزرقاء
 - العين الخضراء

محاسن العين⁽¹⁾

الفتور: انكسار النظر فيه تبدو العين كأنها ناعسة وكأنها مريضة وليس بها مرض.

الدعج: أن تكون العين شديدة السواد مع سعة المقلة.

البرج: شدة سوادها وشدة بياضها.

النجل: سعتها.

الكحل: سواد جفونها من غير كُحل.

الحور: اتساع سوادها.

الوطف: طول أشفارها وتماها.

ورجل ملوؤ العين: إذا كانتا في شكل اللوزتين.

واستحسن بعضهم في العين القبل: وهو ميل الحدقة في النظر إلى الأنف.

(1) - أبو منصور الثعالبي - فقه اللغة وسر العرب - ص 121.

أوصاف العيون الجميلة

اعتمد الشعراء العرب في وصفهم العيون الجميلة على التشبيه والمقاربة، وأعربوا⁽¹⁾ عن رقة شعورهم، وإحساساتهم بالجمال بلغة عذب جرسها، حلوة ألفاظها.

ومن العسير على الإنسان مهما أُوتي من عذوبة اللفظ وروعة البيان، وقوة البلاغة أن يصف بكلمات محدودة جمالاً صنعه الخالق، وأن يعبر بقلمه القاصر عن معانٍ ساحرة رسمتها يد القدر على لحاظ العيون.

في حركات المقلة والجفون والألحاح تأثير كبير على جمال العينين.

والعينان هما أكثر أعضاء الإنسان حركة، وحركاتهما الدائبة لاتتخذ لوناً رتياً خفياً كدقات القلب. بل إنَّ كلَّ ما في العين يتحرك وبشكل مختلف. الجفون تختلج، والأهداب ترتعش، والمقلة تدور، والحوارج تعلو وتهبط، وإنسان العين يضيق ويتسع، وعدسة العين داخل المقلة تنقبض وتنبسط. وكثير من هذه الحركات الظاهرة لها أثر ودلالة، ومعنى في رموز الوجدان تعبر عن المعاني المستعرة في أعماق النفوس.

فمن أوصاف العين المستحسنة الفتور، وهو انكسار النظر وذبوله في أصل الخلقة. وهو معنى وصفهم العين بالمرض والسقم. حلوة الحركة

(1) - الدكتور عبد الرحمن البابا - في أدب وطب العيون - ص 17.

الفصل الثالث

في العين تكمن في الفتور، وغض البصر، وسحر اللحاظ. والفتور في
عين المرأة هو إسبال لطيف بجفنيها، وهو نوع من الدلّ والغنج يضيف
على عينيها جمالاً فوق جمال.

قال ابن ميادة:

ونظرن من خلل الستور بأعين

مرضى يخاطها السقام صباح

وقال عبد الله بن جندب⁽¹⁾:

ألا ياعباد الله هذا أخوكم

قتيلٌ فهل فيكم اليوم نائرٌ

خذوا بدمي إن مت كل خريدة

مريضة جفن العين والطرف ساحرٌ

وقد نسب إلى معاوية قوله في جارية عرضت له في قصره فارتاع
لجمالها فدعاها واقتربها بكرة ثم قال وكان قد ترك الشعر:

سئمت غوايتي فأرحت حلمي

وفى على تحملي اعتراض⁽²⁾

على أني أجيب إذا دعيتي

ذوات الدلّ والحدق المراض

(1) - محمد بن أحمد التجاني - تحفة العروس ومنتعة النفوس، ص 283.

(2) - زهر الآداب - ج 1 - ص 91.

وقال أبو نواس⁽¹⁾:

ضعيفة كزّ اللحظ تحسب أنها

قرية عهد بالإفاقة من سقم

هذا الذبول والفتور يستحسنه أبو نواس بقوله:

لولا فتور في كلامك يشتهي

وترفقي بك بعد واستملاحي

وتكشّر في مقلتيك هو الذي

عطف الفؤاد عليك بعد جماح

لعلّمت أنك لا تمازح شاعراً

في ساعة ليست بحين مزاح

وقد شبّهه ابن المعتز⁽²⁾ بالنرجس حين قال:

وسنان قد طرق النعاس جفونه

فحكى بمقلته ذبول النرجس

وتتكرّر في أبياته لفظة الضعيف:

قد صاد قلبي قمرٌ يسحر منه النظرُ

ضعيفة أجفانه والقلب منه حجر

كأنا ألحظه من فعله تعتذر

(1) - تحقيق أحمد عبد المجد الغزالي - القاهرة - ص 542.

(2) - علي أحمد أدونيس - ديوان الشعر العربي.

الفصل الثالث

لم أرَ وجهاً مثل ذا نجا عليه بشر
وهو الذي يقول⁽¹⁾:

عليم بما تحت العيون من الهوى

سريع بكسر اللحظ والقلب جازع

فيجرح أحشائي بعين مريضة

كما لان متن السيف والحدُّ قاطع

وهذه العين المريضة تدعو إلى الهلاك على حد تعبير عمر بن أبي ربيعة⁽²⁾:

ولكن دعت للحين عين مريضة

فطاوعتها عمداً كأنك حالم

نظرت إليك بمقلتي يعفورة

نظر الريب الشادن الوسنان⁽³⁾

كما قال أحدهم:

لقد فتكت عيون الغيد فينا

بيض مرهفات وهي سود

وتطعننا القدود إذا التقينا

بسمر من أسنتها النهود

(1) - الأبهشي - المستطرف من كل فن مستظرف - ص 406

(2) - ديوان عمر بن أبي ربيعة ت ص 210.

(3) المرجع نفسه - ص 271.

وقد ورد في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه لأبي الحسن الجرجاني قوله:

«وقد علمت أنَّ الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر، ونواظر الغزلان حتى إنك لاتكاد تجد قصيدة ذات نسيب تخلو منه إلا في النادر، ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس:

تصدُّ وتبدي عن أسيلٍ وتتقي

بناظرة من وحشٍ وجرةٍ مُطفل

أو قابلته بقول عدي بن الرقاع:

وكأنها بين النساء أعارها

عينيه أحور من جآذر جاسم

«رأيت إسراع القلب إلى هذين البيتن، وتبيّنت قريهما منه والمعنى واحد وكلاهما خالٍ من الصنعة، بعيد عن البديع إلا ما حسن به من الاستعارة اللطيفة التي كسته هذه البهجة».

وأما ما تمّ به عدي الوصف بقوله على إثر هذا البيت:

وسنان أيقظه النعاس فرنقت

في عينه سنة وليس بنائم

«فقد زاد به على كل من تقدّم، وسبق بفضله جميع من تأخّر؛ ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له، وحظّر على الشعراء ادّعاء الشك فيه لم

أرني بعدت عن الحق، ولا جانبك الصدق»⁽¹⁾.

الفتور:

ويعرف ابن الرومي⁽²⁾ الفتور في العينين بأنه فتور غنج لافتور نعاس:

يسبي العقول بمقلة مكحولة

بفتور غنج لافتور نعاس

قال الأصمعي⁽³⁾: ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف به عدي
الرقاع العاملي في قوله:

فكأنها دون النساء أعارها

عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرثقت

في عينه سينة وليس بنائم

يصطاد يقظان الرجال حديثها

وتطير بهجتها بروح الحالم

وجاء في القصيدة اليتيمة:

وتخالها وسنى إذا نظرت

أو مدنفاً لما يفق بعد

(1) - سيد قطب - النقد الأدبي «أصوله ومناهجه».

(2) - الدكتور عبد الرحمن الباب - في أدب وطب العيون - ص 39.

(3) - أدونيس - ديوان الشعر العربي - ص 388.

بفتور عين مابها رمد
وبها تداوى الأعين الرمد
وغض البصر هو شأن المرأة الحرة التي تتميز بالخفر والحياء.
يقول خالد بن صفوان:
جيداء في حور وسنى على خفر
شماء في بهر من خير نسوان
وقال عبد الله بن المعتز: أنشدني أبو سهل اسماعيل بن علي لأبي
الصواعق قال:
ومريض طرف ليس يصرف طرفه
نحو المدى إلا رماه بحتفه
ظبي له نظر ضعيف كلما
قصد القوي أتى عليه بضعفه
وهاهو البحري⁽¹⁾ يفدي بنفسه ذلك الغزال الذي تعلق به قلبه
لجمال لحظه وفتوره:
بأبي شادن تعلق قلبي
بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست أنساه بادياً من قريب
يتثنى تشني الغصن غضاً

(1) - ديوان البحري - ص 23.

الفصل الثالث

أيها العاتب الذي ليس يرضى
 نم هنيئاً فليست أطعم غمضا
 وقريب من هذا المعنى قوله:
 تبسم عن واضح ذي أثر
 وتنظر من فاطر ذي حور⁽¹⁾
 ومما يبُدُّ لب الحليم
 حسن القوام وفتر النظر
 ومن أجمل ماقاله في محبوبته علوة التي عاشت في مدينة حلب
 بعيدة عنه، بخيلة بالوصال يقترب منها فتبعد في الهوى.
 وقد لعب الوشاة دورهم إلى جانب العذال في محاولات إضعاف
 العلاقة بينهما يقول⁽²⁾:
 عرَّج على حلب فحيي محلةً
 مأنوسة فيها لعلوة منزل
 لغريرة أدنو وتبعد في الهوى
 وأجود بالود المصون وتبخل
 وعليلة الألحاظ ناعمة الصبا
 غري الوشاة بها ولجَّ العذل

(1) - ديوان البحري - ص 97.

(2) - ديوان البحري - ص 25.

وأعزُّ ثم أذلُّ ذلة عاشق
والحب فيه تعزُّر وتذلُّ
ويشير الشاعر أحمد شوقي إلى مافعلته الأعين الفاترات بالحاظها
المريضة في القلوب الصحيحة بقوله⁽¹⁾:
أداري العيون الفاترات السواجيا
وأشكو إليها كيد إنسانها ليا
قتلن ومئين القتيل بألسن
من السحر يبدلن المنايا أمانيا
وكلمن بالألحاظ مرضى كليلة
فكانت صحاحاً في القلوب مواضيا
كما يئنُّ المتنبي قبله أنَّ هذه المرأة التي نظرت إليه قتلته بنظرها وليس
تدري أنها باءت بإثم قتله، وأنَّ دمه في عنقها:
إنَّ التي سفكت دمي بجفونها
لم تدر أنَّ دمي الذي تتقلَّد⁽²⁾
أبرحت يامرض الجفون بمرض
مرض الطيب له وعيد العود

(1) - الشوقيات ص 142.

(2) - ديوان المتنبي - ص 32.

الفصل الثالث

لقد أبرح به حبه لذلك الجفن المريض، إلى حد كبير تجاوزه إلى طبيبه الذي مرض، وعيد عوده رحمة له.

العيون الكحيلة الساحرة:

في حياة المجتمع الجاهلي، في البوادي والخواضر تقريباً يوشك أن يكون مفهوم الجمال متمثلاً بالمرأة، متركّزاً فيها. فالجاهلي لا يجد في حياته الضيقة تعبيراً عن حسن الجمال إلا في هذا الجمال الأنثوي.

فالمرأة هي جِماع مظاهر الجمال وصوره؛ لذلك تكاد تكون محور اهتماماته النفسية، ووثباته العاطفية.

إنَّ الجمال إنما يخفق في إشراق وجهها، وطول جيدها واعتدال قامتها.

فحياة الشعراء الجاهليين تميّزت بالإرهاق والحساسية؛ ولذلك ركّزوا على الوصف الذي يتمثل في بعض مظاهره بالتشبيه الحسي المستمد من الحياة التي كان يحياها الجاهليون، ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم.

في الرقة يبدو الإحساس، وفي الخشونة تبدو الصورة التي تعكس هذا الإحساس.

فعند امرئ القيس⁽¹⁾ نلاحظ أنَّ الشاعر يفصّل في وصف مفاتن محبوبته بوضوح وجرأة، وقصد. ونلمح إحساسه الدقيق بكلّ ما في

(1) - د. شكري فيصل - تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام - ص141.

نظرة صاحبتة من عطف وحنان وجمال وعمق، ونجد تأثره بذلك، واستجابته له، وتفاعله معه.

ولكننا حين نشد التعبير عن هذه العين الجميلة الواسعة، وهذه النظرة العميقة النافذة، وهذا الحنان الذي يفيض عنها لانجد عند الشاعر غير نظرة بقرة وحشية مطلق من وحش وجرة.

تصدُّ وتبدي عن أسيل وتنتقي

بناظرة من وحش وجرة مُطفِّل

(المعنى: إذا أعرضت ظهر خدّها الأسيل الممتد، وجعلت بيني وبينها عيناً ناظرة تشبه عيون وحش وجرة - البيت وصف لجمال خدّها وحسن عينيها اللتين تشبهان عيون الطباء. وجعل الطباء مُطفلة لأنَّ نظرتها إلى أولادها يخالطها الحب والعطف. فهي في تلك الحالة خيرٌ منها في أية حال أخرى).

ومثل ذلك فعل النابغة الذبياني حين عرض لنظرة صاحبتة حيث عبّر عن فيض غامرٍ من الأحاسيس الموحية اليقظة التي وصلت بينه وبينها. إنَّها تصبي الراهب الذي يجد فيها كلّ شيءٍ ينشدّه في دنياه يرى فيها الرشد وإن لم يرشد⁽¹⁾:

نظرت بمقلة شادين متربّب

أحوى أحّم المقلتين مقلّد

نظرت إليك بحاجة لم تقضها

(1) - د. شكري فيصل - تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام - ص 144.

الفصل الثالث

نظر السقيم إلى وجوه العود
لو أنَّها عرضت لأشمت راهب
يخشى الإله صرورة متعبد
لرنا لبهجتها وحسن حديثها

ولخاله رشدًا وإن لم يرشد
«الشادن: الطيبي الذي استغنى عن أمه، المتربب: المرئي: أحوى
الشفيتين: من الحوّة وهي حمرة يعلوها سواد. أحّم: شديد السواد.
مقلّد: طوّق جيدة بالخلي.
يقول الشاعر:

«إنّها تنظر بعيني غزال، وإنّها حوّا الشفتين، سوداء المقلتين، مقلّدة
الجيد».

ويقول طرفة بن العبد⁽¹⁾:

وفي الحيّ أحوى ينفض المزدّ شادنّ

مُظَاهِرُ سِمَطِي لؤلؤ وزبرجد

ينفض: يعطو يمدّ عنقه ليتناول ثمر الأراك. المزدّ: ثمر الأراك.
المُظَاهِر: الذي لبس ثوباً فوق ثوب أو عقداً فوق عقد. السمط: الخيط
الذي نظمت فيه الجواهر.

- يشبّه الطيبي حين يمدّ عنقه ليتناول ثمر الأراك، يعني أنّه طويل

(1) - د. شكري فيصل - تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام - ص 149.

العنق، وقد تحلّى هذا الحبيب بعقدين من لؤلؤ وزبرجد. شبّهه
بالظبي في ثلاثة أشياء في كحل العينين وحوّة الشفتين وحسن
الجيد».

ويقول الأعشى⁽¹⁾:

مبتلة هيفاء رُوْدُ شبابها

لها مقلتا ريم وأسود فاحم

ويُنسب إلى امرئ القيس قوله⁽²⁾:

لها مقلّة لو أنّها نظرت بها

إلى راهبٍ قد صام لله وابتهل

لأصبح مفتوناً معنّى بحبّها

كأن لم يصم لله يوماً ولم يُصل

إلى قوله:

حجازية العينين مكّية الحشا

عراقية الأطراف، رومية الكفل

ويتغنّى الشاعر الجاهلي سويد بن أبي كاهل اليشكري بطرف
محبوبته الساجي الفاتر، وعينيها الكحلاوين الخاليتين من أي
عيب⁽³⁾:

(1) - ديوان الأعشى - ص77.

(2) - ديوان امرئ القيس - ص188.

(1) - الخطيب التبريزي: شرح اختبارات المفضل - ص870.

الفصل الثالث

تمنح المرأة وجهاً واضحاً

مثل قرن الشمس في الصحو ارتفع

صافي اللون، وطرفاً ساجياً

أكحل العينين مافيه قمع

أما الشاعر كعب بن زهير فيصف محبوبته أيضاً بسواد العين وذبول الطرف في قصيدته المشهورة⁽¹⁾:

بانت سعاد قلبي اليوم متبول

متيم عندها لم يجز مكبول

وماسعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغن غضيض الطرف مكحول

أما الشاعر الصوفي المنتجب العاني فيرى الليل صباحاً وينتابه شعور بالسعادة الخالصة؛ لأنَّ المحبوب ابتسم له عن أسنان بيضاء كالأقاحي، فتدفَّق دم النشاط في وجهه الذي اصطبغ بياضه بالحمرة. ويحاول الشاعر العبث بقطف التفاح من الوجنتين، فيدافع الحبيب عن ثماره بنظرة أفضل مما تثيره السيوف المشرفية، كما أنه يرسم صورتين حسيتين تمثلان المحبوب بنظرته الرشيقة، وقدَّه الممشوق حيث يقول⁽²⁾:

(1) - أبو الفرج الأصفهاني «الأغاني» ج 15 - ص 147.

(2) - د. أسعد علي - فن المنتجب العاني - ص 269.

إذا روضها كأنه جنان
ترتع فيه الحور والولدان
من كل أحوى طرفه فتان
صاح ومن خمر الصبا نشوان
رنا طلى واهتز سمهريا⁽¹⁾
وبت أرى ليلي بها صباحا
وثغره أبدى لي الأقاها
فأنبتت وجنته تفاحا
فحين رمت قطفها مزاحا

سل عليّ اللحظ مشرفيا
من الملاحظ أن الشعراء في العصر الجاهلي حدثونا عن مظاهر
الجمال وعن وقعه على سمعهم وأبصارهم، وحواسهم ولكنهم لم
يحدثونا عن أثر هذا الجمال في نفوسهم ولم يلتفتوا إلى وصف مآثره
من أصدااء واهتزازات.

فالمعاني التي تعاقبوا عليها في الحديث عن مفاتن أحببتهم ووصفهم
لها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية. وإن الكثرة الكثيرة منهم لم
يجاوزوا الحديث عن محاسن الخلق إلى محاسن الخلق، ولم يتعدوا
جمال الصورة إلى جمال النفس.

وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى مآتله من عصور لاحظنا أن الذوق

(2) الطلى ولد الظبية - السمهري: الرمح الطويل الصلب.

الفصل الثالث

العربي الأصيل بقي ينكر التكحل لتجميل العيون ويفتن بالعين الكحل
الطبيعية البعيدة عن الجمال المصطنع. وفي اللغة العربية أمثال شعبية عن
الكحل منها:

- أراد أن يكحلها فعمّاها.
- يسرق الكحل من العين.
- ليت كحلها يسد عينها.
- جبال الكحل تخليها المراود.

ولقد كان شاعرنا المتنبي معجباً بالجمال البدوي الطبيعي الذي
لا يعرف التكلف والتطرية، حيث قال:

ما أوجه الحضر المستحسنات به
كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام، ولا صبغ الحواجيب

ويقول البوصيري:

قل للذين تكلفوا زيّ التّقى
وتخيروا للدرس ألف مجلد

لاتحسبوا كحل الجفون بزينة
 إنَّ المها لم تكتحل بالإثمد
 ويقول ابن هانئ الأندلسي:
 فتكات لحظك أم سيف أيبك
 وكؤوس خمر أم مرشف فيك
 حسبوا التكل في جفونك حليةً
 تالله ما بأكفهم كحلوك
 وقال الأبيوردي:
 رممني بسهم راشه الكحل بالردى
 وأقتل أَلحَاظ الملاح كحيلها
 وقد ذمُّ أعرابي امرأته فقال:
 ولانستطيع الكحل من ضيق عينيها
 فإن عالجته صار فوق المحاجر
 ويقول الشاعر في العين الكحلاء:
 كأنهما مكحولتان بإثمد
 ومابهما غير الملاحه من كحل

ولنستمع إلى أمير الشعراء شوقي^(١) ومافهمه من لغة العيون السود

(١) - أحمد شوقي - الشوقيات ت الجزء الثاني - ص 150.

الفصل الثالث

عندما تعطلت اللغة المسموعة:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت

عيني في لغة الهوى عيناك

وهاهو في لبنان في بلدة «بكفية» يصيده سحر الجفون فيقول:

السحر من سود العين لقيته

والبابلي بلحظهن سقيته

الفاترات ومافترن رماية

بمسدّد بين الضلوع مبيتة

الناعسات الموقظاتي للهوى

المغريات به وكنت سليته

الشارعات الهدب أمثال القنا

يحيي الطعين بنظرة ويميته

وأغنّ أكحلّ من مها بكفية

علقت محاجره دمي وعلقته

قد جاء من سحر الجفون فصادني

وأتيت من سحر البيان فصدته

فمشى إلي وليس أولّ جؤذر

وقعت عليه حبائلي فقنصته

العين رمز، ومصدر فتنة وسحر. اتخذ منها الفراعنة رمزاً لوحدة مصر القديمة واستمرار الحياة، ورمزاً دينياً للعودة إلى الحياة بعد الموت، وللصحة بعد المرض، حيث تقول الأسطورة إن عين أوريوس اقتلعها «سات» ثم أعادها «طوط» كما كانوا يتخذونها تميمة تحمي من أمراض العين ثم من جميع الأمراض.

واتخذ المغنون العرب من العين نغماً شجياً يهتفون بها في الليل متصدرة الآهات والمواويل.

واتخذ منها عامة الشعب في معظم البلاد العربية تميمة باللون الأزرق لتحميهم من حسد العيون.

واتخذ منها الشعراء العرب أداة شعرية ورمزاً للمرأة كلها بشكل عام فخطبوا المرأة بعينها.

فالعين الساحرة تفتن الرجال؛ فلا ينجو من شراكها إنسان. يخضع لها الملوك والحكام، تؤثر على ميزان العدل والقضاء إذ تستميل بسحرها قلوب القضاة.

يقول المستعين بالله:

عجباً يهاب الليث حدً سناني

وأهاب سحر فواتر الأجفان

وقال هذيل الأشجعي في عبد الملك بن عمير قاضي الكوفة يغمز من قناته بشأن أحكامه المنحازة:

الفصل الثالث

وكان لها دُلٌّ كحيلة

فأدلت بحسن الدُلِّ منها وبالكحل

ودخل رجل على الشعبي⁽¹⁾ في مجلس القضاء، ومعه امرأته وهي من أجمل النساء فاختصما إليه، وأدلت المرأة بحجتها، وقربت بيئتها فقال الشعبي للزوج: هل عندك من دفاع؟ فأنشأ يقول:

فُتِنَ الشعبي لما	رفع الطرف إليها
فتتته بدلال	وبخطي حاجبيها
فقضى جوراً على	الخصم ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها	نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه	ساجداً بين يديها

فولع الناس بالأبيات وتناشدوها حتى اضطّر الشعبي إلى الاستعفاء من القضاء.

والمعروف أن نداء الجنس يثير الشحنات الداخلية في النفوس، فتلهب المشاعر، وتستجيب الأنفس للجمال والحب، وتبعثر موجات الفكر في العقول.

والسبب في ذلك كله يعود إلى العيون ونظراتها.

لذلك أوضح الإسلام العلاقة المباشرة بين الجنس ونظرات العيون «فأمر الرجال والنساء بغض البصر».

(1) - الراغب الأصفهاني - محاضرات الأدباء - ص 87.

العيون في الشعر العربي

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾ «سورة النور آية 29».

﴿قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ «سورة النور آية 30».

أما الشاعر ابن الرومي فيحدثنا عن المغنيّة «وحيد» التي سلبت فؤاده بجمالها المتكامل وحسنها الذي لا يجد له مثيلاً:

يا خليلي تيمّنتني وحيدٌ
 ففؤادي بها معنيّ عميدٌ
 غادة زانها من الغصن قدّ
 ومن الطّبي مقلتان وجيدٌ
 وحسانٍ عرضن لي قلت مهلاً
 عن وحيدٍ فحقّها التوحيدُ
 حسنّها في العيون حسن وحيدٌ
 فلها في القلوب حبّ وحيدٌ⁽¹⁾

قال المأمون في قبينة له⁽²⁾:

لها في لحظها لحظاتٌ حتفٍ
 تميمت بها وتحيي من تريدُ

(1) - مصطفى طلاس - مختارات شعرية - 54.

(2) - ابن عبد ربّه - العقد الفريد - ج 7 - ص 58.

الفصل الثالث

فإن غضبت رأيت الناس قتلى
 وإن ضحكت فأرواح تعود
 وتسبي العالمين بمقلتيها
 كأن العالمين لها عبيد
 وقد شرب المتنبي⁽¹⁾ كؤوساً مترعة من خمر ذلك الطرف الساحر
 واللمحظ الفاتر:
 وطرف إن سقى العشاق كأساً
 بها نقص سقانيها دهاقا
 وخصر تثبت الأبصار فيه
 كأن عليه من حدي نطاقا
 ذلك اللمحظ القاتل يسفك الدماء؛ فتلك الشמוש ماذهن وجئن إلا
 أجزئين بلحظاهن دماء عشاقهن⁽²⁾:
 أيام فيك شמוש ما انبعثن لنا
 إلا انبعثن دماً باللمحظ مسفوكا
 وفيه إشارة إلى قول أشجع:
 فإذا نظرت إلى محاسنها
 فلكل موضع نظرة قتل

(1) - ديوان المتنبي - ج 2 - ص 296.

(2) - ديوان المتنبي - ج 2 - ص 387.

ومثله لأي نواس:

يا ناظراً ما أقلت لحظاته

حتى تشحط بينهم قتيلٌ

وما أحسن ما أخذه بعضهم فقال:

وجفونٌ لك لا تطرف إلا عن قتيلٍ

ما جميل الصبر عنها عند مثلي بجميلٍ

ولعينها وماتضمتاه من السحر وأثارتاه من لوعة الحب ما يلقاه قلب

المتنبى من الوجد. وما كان ممن يميل إلى اللهو والعشق ولكن جفون

عينها فتانة لمن يراها. تدخل العشق في قلب من لم يعشق:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي

وللحب ما لم يبق مني وما بقي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه

ولكن من يصبر جفونك يعشقي

ويرى الشاعر مسلم بن الوليد⁽¹⁾ «صريع الغواني» أن العين تسلب

الألباب كالخمر، وتنطق بكل معاني السحر، وألوان الفتنة:

إن كانت الخمر للألباب سالبة

فإن عينيك تجري في مجاريها

سيان كأس من الصهباء أشربها

ونظرة منك عندي حين تصببها

(1) - ديوان مسلم بن الوليد ص 216.

الفصل الثالث

في مقتليك صفاتُ السحر ناطقةً

بلفظٍ واحدةٍ شتَّى معانيها

ويؤكدُ المتنبي⁽¹⁾ الأثر القاتل للعيون الساحرة التي تفعل فعل
السيوف.

فإذا بلغ سكون الحركة فيها نهايته مات من ينظر إليها من فرط
حبها:

وأين التي للسحر في لحظاتها

سيوفٌ طُلباها من دمي أبداً حُمُرُ

تنتهي سكون الحسن في حركاتها

فليس لراءٍ وجهها لم يث عذُرُ

ويتساءل: أي شيء أصابه من هوى العيون السود والأشفار السود
مثل الأحداق:

ما بنا من هوى العيون اللواتي

لونُ أشفارهنَّ لونُ الحِداق

وهو لم يرَ كالألحاظ يوم مفارقتهم الذين أحبهم.

لقد أدرن عيوناً حائراتٍ متابعاتٍ لحظها، متعباتٍ بترادف دمعها
كأنما وضعت أحداقها على الزئبق؛ فهي حائرة لاتسكن، ومتعبة
لاتفتقر⁽²⁾:

(1) - ديوان المتنبي - ص 124.

(2) - ديوان المتنبي - ج 1 - ص 307.

ولم أرَ كالألحاظ يوم رحيلهم
بعثن بكلّ القتل من كلّ مشفق
أدزن عيوناً حائرات كأنّها
مرْكبةٌ أحداقها فوق زئبق
كما قال أحدهم:

لقد فتكت عيون الغيد فينا
ببيض مرهفات وهي سودُ
وتطعننا القدود إذا التقينا
بسمرٍ من أسنتها النهود
ويقول المتنبي: كم قتيل قتل بعيون المها: أي المشابهة لعيون المها
- وليست تلك العيون التي قتله كالعيون التي قتلتني وفتكت
بي⁽¹⁾:

كم قتيل، كما قُتلت شهيد
ببياض الطلى وورد الخدود
وعيون المها، ولاكعيون
فتكت بالمتيم العمود
وفي المعنى ذاته يقول الشاعر أحمد شوقي⁽²⁾:

(1) - ديوان المتنبي - ج 1 - ص 313.

(2) الشوقيات - ص 139.

الفصل الثالث

من صوّر السّحر المبين عيوناً
 وأحلّه حدقاً لها وجفوناً؟
 ياقلب إنّ من البواتر أعيناً
 سوداً وإن من الجآذر عينا
 العين الساحرة تزداد حسناً بتزايد النظر إليها على حدّ تعبير أبي نواس
 ندي يطلب الخمر من عينها الساحرة:
 وساحرة العينين ماتحسن السحرا
 تواصلني سراً وتقطعني جهرا
 وهات اسقني من طرفها خمر طرفها
 فإنّي امرؤ آليت لأشرب الخمر
 ودار بها ظبيّ من الإنس ناعم
 ترود عيون الشّرب جانبه شّزرا
 إذا ماأدار الكأس ثنى بطرفه
 فعاطاهم خمرأ وعاطاهم سحرا
 ويقول الصّلاح الصّفدي:
 ياعاذلي على عين محجبة
 خفّ سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
 وخذ فؤادي ودعه نصب مقلتها
 لاترم نفسك بين السيف والهدف

ويقول أحمد شوقي⁽¹⁾:
 لك قد سجد البان له
 وتمنت لو أقلتته الربى
 ولحاذ من معاني سحره
 جمع الجفن سهاماً وظبي
 ويسدّد أحور المقلة سهام اللحظ فيصمي الفؤاد كما يقول لسان
 الدين الخطيب في موشحته المشهورة⁽²⁾:
 جادك الغيث إذا الغيث همى
 يازمان الوصل بالأندلس
 أحور المقلة معسول اللمى
 جال في النفس مجال النفس
 سدّد السهم فأصمى إذ رمى
 بفؤادي نبلة المفترس
 غزال يسلّ السيوف من لحظة الأحور فيمتلك بحسنه القلوب التي
 لاتهدأ من روعها.
 يقول ابن زمرك⁽³⁾:
 بالله يا قامة القضيب
 ومخجل الشمس والقمر

(1) - الشوقيات - الجزء الأول - ص 117.

(2) - د. جوت الركابي - الأد الأنديس - ص 328.

(3) - د. جوت الركابي - المرجع نفسه - ص 328.

الفصل الثالث

من ملّك الحسن في القلوب
وأيد اللحظ بالحوّز
كم شادين قاد لي الختوفا
بربع القلب قد سكن
يسلّ من لحظه سيوفاً
فالقلب بالروع ماسكن
ولا تختلف نظرة الشعراء الصوفيين إلى جمال المحبوب عن غيرهم من
بقية الشعراء.
فلو نظرنا - على سبيل المثال - إلى حبيبة الشاعر الصوفي «المنتجب
العاني» لرأيناها حبيبة دقيقة الخصر، مصقولة الترائب معتدلة القوام.
شعرها كالليل، وجهها كالبدن، أجفانها ناعسة ساحرة.
ومن نماذج شعره قوله في وصف المحبوب⁽¹⁾:
وربّ أهيف ساجي الطرف معتدل
أغنّ أحوى دقيق الخصر واهيه
أعار أمّ الطّلا من غنج مقلته
وعلمّ البان ضرباً من تثنيه
فالترجس الغض من عينيه أنهبه
والورد باللحظ من خديّه أجنيه

(1) - د. أسعد علي - فن المنتجب العاني - ص 161.

ختمت سمعي وطرفي في هواه فلم
أنظر سواه ولأصغي لواشييه
لقد ختم سمعه وبصره بحب حبيبه؛ فما يسمع إلا إياه، ولا يبصر إلا
به.

إنه ليرتفع بالفهم إلى المستوى العلوي من صبايات العشاق
الصوفيين الذين يُكثون بالحبيب عن المطلق الأزلي الذي انبثق الكل
عنه ومنه.

وحيثما لا ترى العين حدود المباشر يتيقظ الباطن فتنتفتح داخل
الإنسان عيون وعيون.

الصوفي إنسان يرى ما وراء الأشياء والحدود. ولهذا كانت عينه
العين، وشعره الشعر.

فالحلاج مثلاً يتجاوز في الرؤيا حدود القلب والغزلان والتوراة
والمصحف ودين الحب.
لقد صار هو هو:

يا جملة الكل لست غيري
فما اعتذارى إذن إلي⁽¹⁾
أنا أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا

(1) - د. علي شلق - العين في الشعر العربي - ص 102.

الفصل الثالث

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرته أبصرتنا

أمّا ابن الفارض فيخلو مع الحبيب، ويبيح لنفسه النظر إلى محاسن وجهه ليتعرّف إلى ذاته بعد أن كان ضائعاً غير معروف⁽¹⁾:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا

سرٌّ أرقُّ من النسيم إذا سرى

وأباح طرفي نظرةً أمّلتها

فغدوت معروفاً وكنت منكراً

فدهشت بين جماله وجلاله

وغدا لسان الحال عنّي مخبراً

فأدر لحاظك في محاسن وجهه

تلق جميع الحسن فيه مصوراً

العين الحوراء:

أمّا العيون الدّعج العربية الأصبيلة التي تتصف بشدة السواد واتساعه مع سعة المقلة.

فقد حاول أبو حرزه جرير⁽²⁾ أن يوحى بسحرها حين قال:

(1) - ديوان ابن الفارض - ص99.

(2) - أدونيس - ديوان الشعر العربي 416.

لقد تكثمت الهوى حتى تهيمني
 لأستطيع لهذا الحب كتماناً
 إن العيون التي في طرفها حور
 قتلنا ثم لم يحين قتلنا
 يصرغن ذا اللب حتى لاحراك به
 وهن أضعف خلق الله إنساناً
 ويقول الشاعر أبو هيثم في المعنى ذاته (1):
 أخو دنف رمته فأقصده
 سهام من جفونك لاتطيش
 فواتك لا يقال سوى احورار
 بهن ولاسوى الأهداب ريش
 أصبن فؤاد مهجته فأضحى
 سقيماً لايموت ولايعيش
 العيون السود الطبيعية الجميلة هي التي انتشى العربي بلمحاتها،
 وتكحلت عيناه بلحظاتها الساحرة.
 لقد وضع العرب لهذه العيون كياناً جمالياً متعدد المعاني
 والصفات اتخذه مقياساً للجمال. وأهم تلك الصفات أوجزها
 المنذر الأكبر عندما أهدى إلى كسرى أنوشروان جارية، وكتب إليه

(1) - الأبيهي - المستطرف من كل فن مستظرف ص406.

الفصل الثالث

في وصف عينيها يقول (إنَّها زَجَاء وطفاء، كحلاء، دعجاء، حوراء، عيناء).

فالزجج هو في الحاجبين دقة وطول كما وصفه خالد بن صفوان في نونيته المسماة «العروس».

صفّر تراتبها زج حواجبها

سودّ ذوائبها كالحالك القاني

والوطف: غزارة الأهداب مع طول. فهو أوطف. وهي وطفاء. والعين الكحلاء: هي العين التي تبدو وكأنّ الكحل فيها وهي من غير تكحل كعين الغزال.

يقول عبد الرحمن بن حسان وكان يشدو بغنائها ابن سريج:

ولنّ عينيها لعينا جؤذر

أهدب الأشفار من حور البقر

تنكر الإثم لا تعرفه

غير أن تسمع منه بخبر

والحور: شدة بياض المقلة مع شدة سوادها، والدعج في العينين شدة سواد الحدقة.

يقول خالد بن صفوان:

كحلاء في دعج عيناء في برج

نجلاء في زجج تسلو وتقلاني

ويقول العرب في أوصاف العيون وملحقاتها:

ظمياء العيون: رقيقة الجفون.

عين سجراء: أي بيّنة السجر وهي أن يخالط بياضها حمرة.

عين شكلاء: أي بيّنة الشكل ويقال: أشكل أي طويل شق العين.

عين سبلاء: العين الطويلة الهدب.

عين شهلاء: الشهلة حمرة في سوادها.

البلج: نقاوة وتباعد ما بين الحاجبين.

قال المسدود⁽¹⁾:

باحورار العين والدعج واحمرار الخد في الضرج

وبتفاح الخدود وما ضمّ من مسك ومن أرج

كن رقيق القلب إنك من قتل من يهواك في حرج

لقد نفذت سهام العين إلى قلب المتنبّي فجرحته جرحاً يشبه عينيها
في السعة. وربما كان الرمح لا يصل إليه بسبب وجود الدرع. ولكن
الدرع لم تحصّنه من نظرتها:

مُثِّلَتْ عَيْنُكَ فِي حِشَايَ جِرَاحَةً

فتشابهها كلتاهما نجلأ⁽²⁾

(1) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج 7 - ص 39.

(2) - ديوان المتنبّي - ج 1 - ص 14.

الفصل الثالث

نفدت علي السابري وربما
تندق فيه الصعدة السمرء
أما عمر بن أبي ربيعة الذي قضى عمره مبهوراً بألوان الحسن
فيقول:

ولن أنسى بخيف منى تسارق زينب النظر⁽¹⁾
إليّ بمقلتي ريم ترى في طرفه حورا
دخل بعض الأعراب على ثعلب النحوي فقال⁽²⁾
أنشدني يا إمام الأدب أرق شعر قالته العرب.
فقال لأجد أرق من قول جرير:
إن العيون التي في طرفها حور
قتلنا ثم لم يحين قتلنا
يصر عن ذا اللب حتى لا حراك له
وهن أضعف خلق الله إنسانا
فقال الإعرابي هذا شعر قد لاكته السفلة بألستها هات غيره.
فقال ثعلب: أفدنا مما عندك يا أخا العرب.
فقال الأعرابي:

قول مسلم صريع الغواني:

(1) - ديوان عمر بن أبي ربيعة 167.
(2) - بهاء الدين العاملي - الكشكول - ج 2 - ص 318.

نبارزُ أقران الوغى فنصدهم
ويغلبنا في السلم لحظ الكواعب
وليست سهام الحرب تُفني نفوسنا
ولكن سهام فؤقت فوق الحواجب
فقال ثعلب لحضار مجلسه:
اكتبوها على الخناجر؟
ولو بالخناجر؟

ومن طريف ما قاله الشاعر تميم بن المعز متغزلاً⁽¹⁾:
أباح لمقلتي السهرا وجار عليّ واقتدرا
غزال لو جرى نفسي عليه لذاب وانفطرا
ولكن عينه حشدت عليّ الغنج والخورا
ومن أودى به قمر فكيف يعاتب القمر؟
ويروى أن الخليفة عبد المؤمن بن علي أمير دولة الموحدين في المغرب
كان يسير يوماً بصحبة وزيره ابن عطية في طرق مراكش فأطلت جارية
حسناً؛ فقال الخليفة مرتجلاً⁽²⁾.

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت
فأجازه الوزير: حوراء ترنو إلي العشاق بالمثل.

(1) - زهر الآداب - ج2 - ص186.

(2) - أحمد توفيق المدني - تاريخ افريقيا.

الفصل الثالث

فقال عبد المؤمن: كأنما لحظها في قلب عاشقها.
 فقال الوزير: سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي.
 ويتحدث الشاعر ابن الساعاتي عن علة الحدق وصحتها⁽¹⁾:
 لا يغرنك بالسيف المضاء فالظبا مانظرت منه الظباء
 حدق صحتها علتها ربما كان من الداء الدواء
 ويصف ماتفعله سهام اللحظ:
 وأحور من عينيه هاروت بابل
 رمى فاتقينا نبلة بالمقاتل
 يدافع عن الحافظه بجفونه
 ولم أر جفنأ صال دون المناصل

العيون الزرقاء:

عرف العرب اللون الأزرق في عيون الجواري والقيان منذ عهد
 الجاهلية عن طريق قوافل التجار التي كانت تحمل الرقيق من بلاد فارس
 وغيرها.
 كما عرف العرب القدامى اللون الأزرق في عيون الغزاة الروم؛
 ولذلك لم تأت أوصافها في شعر التراث إلا نادراً.
 كره العرب اللون الأزرق، والعيون الزرق فاتهموا أصحابها بالكذب
 واللؤم والشر.

(1) - د. عمر موسى باشا أدب الدول المتتابعة - ص 541.

وكان اللون الأزرق في العيون علامة فارقة للأعجمي الرومي وكل أعجمي حتى قيل عن شديد العداوة «إنه عدو أزرق»⁽¹⁾.
ويقال في العدو «هو أزرق العين، وإن لم يكن أزرق».
هجا بشار بن برد العباس بن محمد العباسي أخا الخليفة أبا جعفر المنصور بقوله:

وللبخيل على أمواله علل

زرق العيون عليها أوجه سود
شبه بشار العلل بحراس يتخذها البخيل على ماله، وتخيل لها أعيناً
زرقاً ووجوهاً سوداً، كي تكتمل فيه الدمامة.
وهذا المعنى أخذه بشار من قوله تعالى في سورة طه آية «100» ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ زُرْقًا﴾.
في تفسير الجلالين: معناه أن تكون عيونهم زرقاً ووجوههم سوداء؛
لأن وجوه المجرمين تسود يوم القيامة.
ولم تخل أشعار العرب من وصم العين الزرقاء بالقباحة والحسد. من ذلك قول بشار:

تراخت في النعيم فلم ينلها

حواسد أعين الزرق القباح

ويتشائم ابن الرومي من العيون الزرق فيقول في هجاء ابن طالب الكاتب:

(1) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج3 - ص56.

الفصل الثالث

أزيرق مشؤوم، أحيمر قاشر
 لأصحابه نحس على القوم ثاقب
 وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب
 لعينه لون السيف والسيف قابض
 وقال ذو الرمة في ذم العيون الزرق:
 زرق العيون إذا جاورتهم سرقوا
 مايسرق العبد أو نابأتهم كذبوا
 وكان التسري بالجميلات من روميات وفارسيات لحسن قوامهن،
 وبياض بشرتهن قد بدأت منذ الفتوحات الإسلامية.
 قال عمر بن أبي ربيعة:
 سحرتني الزرقاء من مارون
 إنما السحر عند زرق العيون
 سحرتني بجيدها وشتيت⁽¹⁾
 وبوجه ذي بهجة مسنون
 فاللون المستحب عند العرب كان لدى المرأة ذات البشرة البيضاء
 الرقيقة أو البيضاء التي يضرب لونها بالغداة إلى الحمرة وبالعشية إلى
 الصفرة كما وصفها ذو الرمة:
 بيضاء في دعج كحلاء في برج
 كأنها فضة قد مسها ذهب

(1) - الجيد: العنق - الشتيت: الثغر الأفلع.

وجاء قوله تعالى:

﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ أي حسان الأعين لا ينظرون إلا إلى أزواجهن.

﴿كأنهن بيض مكنون﴾ الصفات آية 48 - 49.

وجاء في تفسيرها «كأنهن في اللون الأبيض بيض للنعام مستور بريش لا يصل إليه غبار. ولونه البياض في صفرة.

فاللون الأصفر أحبه العرب. وجاء قوله تعالى:

﴿إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ سورة البقرة.

ثم أخذت العيون الزرق⁽¹⁾ تتكاثر بين مشاهير العرب. فمروان بن الحكم والي المدينة المنورة كان أزرق العينين وسميت باسمه عين الزرقاء وهي عين الماء التي تقع جنوب غرب المدينة المنورة.

وفي العصر العباسي كان الكثير من الخلفاء من أمهات روميات وتركيات.

وكثيرات منهن كن زرق العيون.

ونلاحظ أن الشعراء الذين دافعوا عن زرقة العيون في ذلك الوقت.

شبهوا زرقة العين بزرقة عتاق الطير، أو زرقة حد السيف لا بزرقة السماء كما درج على ذلك شعراء الغرب، وشعراؤنا المعاصرون لأن السماء تتراءى لهم غالباً صافية زرقاء عبر الدهور.

(1) - الدكتور عبد الرحمن البابا - في أدب وطب العيون - ص32.

الفصل الثالث

وفي الصحارى يطغى في الميزان جمال الغيوم في السماء على جمال
الزرق والصفاء.

يقول الواواء الدمشقي⁽¹⁾:

يامن هو الماء في تكوين خلقته

ومن هو الخمر في أفعال مقلته

ومن بزرق سيف اللحظ طلّ دمي

والسيف ما فخره إلا بزرقته

علّمت إنسان عيني أن يعوم فقد

جادت سباحته في بحر دمعته

وفي حديث ذكره أبو الفرج الأصفهاني في كتاب النساء قال:

قال رسول الله ﷺ:

«تزوّجوا الزرق؛ فإنّ فيهنّ يمناً»

وقال معاوية لصحّار العبدى:

«إنك لأزرق».

فقال له صحّار:

والبازي أزرق.

أخذ الشاعر محمد بن وهب البصري البغدادي فقال:

(1) - الثعالبي - يتيمة الدهر - ج 1 - ص 288.

أحبك إن قالوا بعينك زرقه

كذاك عتاق الطير زرق عيونها

ولم يكن الشعر العربي القديم وحده حافلاً بدم العيون الزرقاء فقد
لاحقتهم الأحاديث الموضوعة، والأمثال الشعبية.

ففي حديث من غير سند رواه الديلمي يقول:

«إياك والأشقر الأزرق فإنه من قرنه إلى قدمه مكر».

وفي أيامنا يقولون في الأمثال الشعبية:

«إياك والعيون الزرق والأسنان الفرق».

لكن كراهية العيون الملونة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام
تحولت إلى نقيض ما كانت عليه منذ بداية العصر الحديث. ومع أن
وصف أعضاء المرأة الحسناء تضاعف في الشعر الحديث مع اتساع أفق
الشعراء في تأملاتهم وأفكارهم وتأثرهم بالرومانسية الغربية والمذاهب
الشعرية الكثيرة. فإن حضور العيون الخضر الزرق أصبح واضحاً تزخر به
روائع شعر الغزل الحديث.

يقول أمين نخلة في العيون الزرق⁽¹⁾:

غمس الريشة في البحر الذي

صوّر العينين كاللجّ الرقيق

فتح الماضي لعيني كوة

فأطلي أعذب الحب العتيق

(1) - أمين نخلة - الديوان الجديد - ص 128.

الفصل الثالث

وفي العيون الزرقاء الواسعة التي تحاكي بزرقها لون السماء والبحر
يقول الشاعر بدوي الجبل:

في مقلتيك سماوات يهددها
من أشقر النور أصفاه وأحلاه
ورنوة لك راح النجم يرشفها
حتى ترنح سكر في محياه
أطل خلف الجفون الوطف موطنه
بعد الفراق فحيّاه وفدّاه
قلبي وللشقرة المغناج لهفته
ليت الحنين الذي أضناه أفناه
مدله فيك ما ليل ونجمته
موله فيك ماقيس وليلاه
يضيع عني وسيم من كواكبها
فحين أرنو إلى عينيك ألقاه
توحي العين بالبحر عمقاً واتساعاً وحركة وارتحالاً. وعالم العيون
عالم يختصر الطبيعة وكلما خاف الشاعر نزار قباني من الضياع أو
الدوار سعى إلى أن يرسو في مرفأ عينيهما الأزرق⁽¹⁾.
في مرفأ عينيك الأزرق

(1) - مجلة الموقف الأدبي - العدد 857 - عام 1975 ص38.

أركض كالطفل على الصخر
أستنشق رائحة البحر
وأعود كعصفور مرهق
في مرفأ عينيك الأزرق
تتكلم في الليل الأحجار
في دفتر عينيك المغلق
من خبأ آلاف الأشعار
لو أني... لو أني بحار
لو أحد يمنحني زورق
أرسيت قلوعي كل مساء
في مرفأ عينيك الأزرق
الموج الأزرق في عينيك
يجرجرنني نحو الأعماق
أزرق
أزرق
لا شيء سوى اللون الأزرق
وأنا ماعندي تجربة
في الحب ولاعندي زورق

الفصل الثالث

اللون في العينين أغرق لون البحر. غير أن العيون بصفائها تقف فوق
الزمن وربما قبل الزمن فهي نوع من الأزل:

أنا عينك أنا كتبتهما

قبل بدء البدء قبل الأعصر

أنا بعثرت نجومى فيهما

زمر تسألني عن زمر

ما المصاييح التي تغلي على

فتحتي عينك إلا فكري

وتنفتح أمامنا أكوان تستجيب لها بصيرتنا كلما رأينا عينين زرقاوين
بمثل هذا الجمال الذي رحل إليه الشاعر نزار قباني في «القصيدة
البحرية».

وينسحق نزار قباني أمام قدره الضائع الفار من عينيها ليقف مع
ماضيه وحاضره ومستقبله لحظة واحدة.

إنني لأبحث في عينيك عن قدرى

وعن وجودى ولكن لأرى أحداً

ويستخدم للعيون مواصفات الفيروز ونيسان والليل والزنبق⁽¹⁾:

وفي مرفأ عينيك الأزرق

يتساقط ثلج في تموز

(1) - مطانيوس ميخائيل - دراسات في الشعر العربي الحديث - الصفحات 149 - 158.

ومراكب حبلى بالفيروز
أغرقت البحر ولم تغرق
ويقول في قصيدة أخرى:
عينك نيسانان... كيف أنا
أغتال في عينيك نيسانان؟

ومن الملاحظ أن رؤية اللون انتقلت من النظر إليه في نفسه إلى النظر إليه في أثره كمنبّه للنفس الإنسانية.

إن اللون دراسة ومفهوماً وطبيعة - تطوّر تطوراً واسعاً فإذا كان التقليديون ينظرون إلى اللون نظرة مادية في ذاته على أساس أنه حلية ترتبط بالشكل، فإن الأدباء في العصر الحديث أخذوا يرونه على أساس أنه قيمة تعبيرية ترتبط بمعنى العمل ومحتواه، وبتجربة صاحبه الوجدانية. أو هو على حد تعبير «خليل مطران» «صورة الوجدان»⁽¹⁾:

فالأخضر: عنوان انبثاق الحياة والصحة ويرمز إلى الكون والطبيعة والربيع والشباب. والأزرق يشير إلى الهدوء والسكينة والامتداد العام الذي لا يعرف الحدود.

يقول الدكتور ابراهيم ناجي:
أزرق العين هادئ هداة الب

حر بعيد الرضى بعيد القرار

(1) - د. نعيم اليافي - تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث - ص 224.

الفصل الثالث

أما اللونان الأبيض والأسود فقد أكثر من استعمالهما الشعراء وقابلوا بينهما باستمرار؛ فالأبيض يرمز إلى الصفاء والغبطة والنقاء والعفاف والسلم، والأسود عكس ذلك يوحي بالحزن والخطيئة والظلام والقساوة والصلادة.

العين الخضراء:

أصبحت العين في نظر الشعراء عالماً كبيراً بألوانه المختلفة تنسكب فيه زرقة السماء والبحار، أو خضرة المروج والكروم ويدوب فيه سواد الليل كحلاً، يناجيه القمر والنجوم، وتكمن وراءه الغوامض والأسرار.

العيون الخضراء يصفها الشاعر بدر شاكر السياب بقوله:

عينك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عينك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نَهْز

إنها ذات مدى زيتي؛ بحيرة خضراء، عريشة كسلى تختصر الطبيعة، وتحتويها عطاء ومشاورير، وصيفاً خيراً خصب المواسم.

المساء هادئ؛ لكن فيه شلالاً، العينان هادئتان لكن فيهما ألوف الصور تنزلق عليهما، وبريق العينين يخطف انتباه الشاعر نزار قباني إلى مافيهما من انفتاحات على آفاق مديدة:

المساء شلالُ فيروزِ ثري
 وبعينيك ألوف الصور⁽¹⁾
 وأنا متنقل بينهما ضوء
 عينيك وضوء القمر
 وبعينيك مرايا اشتعلت
 وبحارٌ وُلدت من أبحر
 وانفتحات على صحو على
 جزير ليست ببال الجزير
 اخضرار عينيها هو سرُّ اللون والضوء في الشرق والغرب⁽²⁾:
 تُرى يا جميلة لولاك هل ضجَّ بالورد دربُ
 ولولا اخضراؤَ بعينيك ثُرُ المواعيد رحبُ
 أيسبح بالضوء شرقُ أيغمر باللون غربُ
 الخضرة الجميلة نراها في العيون التي وصفها الشاعر راشد حسين في
 قصيدته «القدس في عنين»:

لون عينيك نخيل	لون عينيك دوال
لون عينيك كحبي القدس	لون عينيك ألف غال

 وجريح لو عينيك كشعري

(1) - مجلة اللوتس - العدد 66/65 - عام 1988 - ص154.

(1) - نزار قباني - طفولة نهد - ص52.

الفصل الثالث

وجميلٌ مثل حبي
وطويل كاعتقالي
لون عينيك أبي يزرع رماناً وتيناً
ويقول: ازرع، فما تزرعه يُضحى بنينا
ويغني ياليلي ياليلي
لون عينيك صلاح الدين من دون رجال
وعذاب لون عينيك لأشباه الرجال
لون عينيك حصاذاً
لون عينيك ييادز
لون عينيك كفاح. وطني فيه مسافر
وصبور لون عينيك كأمي
وكريم كسهولي، وأبي كجباري
لون عينيك حمام، ونسور في نضالي
سعيد عقل زعيم المدرسة الجمالية في الشعر العربي يطالب أن يكون
الجمال مطلقاً وغير محدود.
حلم أي الجن؟ يا أغنية

عاش من وعد بها سحر الوتر⁽¹⁾

(1) - رندلي - ص 12.

والمرأة عنده رمز لجمال الوجود وعبقريته في الخلق والإبداع. إنه يشهق لانتساع عينيها⁽¹⁾، وينقله الفتون والسحر من سنى الزنبق إلى ذراعيها ثم إلى أراجيح الهوى ومروج جفونها الخضر.

يكون أن أشهق

لكبر عينيها

ومن سنى الزنبق

إلى ذراعيها

ينقلني الفتون

ينقلني إلى الغوى

إلى أراجيح الهوى

إلى المروج الخضر في الجفون

(1) - مطانيوس ميخائيل - دراسات في الشعر العربي الحديث - ص 149.

معاييب العين^(١)

الحَوَص: ضيق العينين.

الحَوَص: غورها مع الضيق وغلظ الجفن الأعلى.

الشَّر: انقلاب الجفن.

العَمَش: أن تسيل العين وترمض.

الكَمَش: ألا يكاد يُبصر.

العَطَش: شبه العمش.

الجهر: ألا يبصر نهاراً.

العشا: ألا يبصر ليلاً.

الخَزَر: أن ينظر بمؤخرة عينه. والخُزرة: انقلاب الحدقة نحو حاذ.

العَضَن: أن يكسر عينه حتى تتغضن جفونه.

القَبَل: أن يكون كأنه ينظر إلى أنفه وهو أهون من الحول.

الخَفَش: صغر العينين وضعف البصر.

- أبو منصور الثعالبي - فقه اللغة وسر العربية - ص 121 - 122.

الجفن: فساد في العين يضيق له الجفن.
 الدوش: ضيق العين وفساد البصر.
 البخق: أن يذهب البصر والعين منفتحة.
 الكمه: أن يولد الإنسان أعمى.
 الشطور: أن تراه ينظر إليك وهو ينظر إلى غيرك.
 الشوص: أن ينظر بإحدى عينيه ويميل وجهه في شق العين التي يريد أن ينظر بها.
 الجحوظ: خروج المقلة وظهورها من الحجاج.
 البخص: أن يكون فوق العينين أو تحتها لحم ناتئ.
 جاء في لسان العرب «الأحول الذي حولت عيناه جميعاً».
 أمّا إذا أقبلت إحدى الحدقتين على الأخرى فهو أقبل، والمرأة قبلاء.
 ويقال أقبل عينه، أي صيرها قبلاء.
 إذا أقبل سواده على الأنف فهو أقبل (حول متقارب) فإذا أقبل على الصدغين فهو أخزر (حول متباعد).
 وصاحب العين الحولاء يخدع الرقيب بنظره، فلقد كان أبو العيناء الشاعر الأحول يجد في حول عينيه ما يحمد الله عليه:
 حمدت إلهي إذ بلاني بحبها
 على حَوْلٍ يغني عن النظر الشرير

نظرتُ إليها والرقيب يخالني
 نظرتُ إليه فاسترحت من الغدرِ
 ويقول مزاحم العقيلي⁽¹⁾:
 أفي كلِّ يوم أنت من لاجع الهوى
 إلى الشَّمِّ من أعلام ميلاءِ ناظرٍ
 بعمشاءٍ من طول البكاءِ كأنما
 بها رمدٌ أو طرفها متخازر
 تمنى المنى حتى إذا ملَّت المنى
 جرى واكفٌ من دمعها متبادرٍ
 وقد تصاب العين بالعشى من كثرة البكاء.
 يقول أبو بكر محمد بن زُهر الإشبيلي⁽²⁾:
 ما لعيني عشيثٌ بالنظرِ
 أنكرت بعدك ضوء القمر
 وإذا ماشئت فاسمع خبري
 عشيث عيناى من طول البكا
 وبكى بعضي على بعضي معي
 وأنشد الثعالبي في فقه اللغة:

(1) - ديوان الشعر العربي، أدونيس ص460.
 (2) - د. جودت الركابي - في الأدب الأندلسي - ص322.

أشتهي في الطفلة القبلا

لاكثيراً يشبه الحولا

وتمضة قصة تُروى عن تطير ابن الرومي. من ذلك أنه حضر
مهرجاناً شهدته قيتان إحداهن حواء والثانية عجوز في عينها نُكتة.
فتطير من ذلك. وحدث أن سقطت ابنة صاحب المهرجان عن السطح.
فعزا ذلك إلى المغنيتين:

أيها المحتفي بحولٍ وعورٍ

أين كانت منك الوجوه الحسانُ

فتحك المهرجان بالحول والعور

رأنا ما أعقب المهرجانُ

كان من ذلك فقدك ابنتك

الحرّة مصبوغة بها الأجفانُ

ولقد كان أعوران يمشان معاً فقال أحدهما:

أيأسره فيفصلنا المعري أياؤنه فيجمعنا جرير

ونذهب بيننا رجلٌ ضريّر ونرجع بيننا رجلٌ بصير

ورؤي عن أبي حاتم قال:

رمي رجل أعور بنشابه، فأصابته عينه الصحيحة قال «أمسينا
وأمسى الملك لله».

الفصل الرابع

كما زوي عن الزبير بن بكار قال:
 جاءت امرأة إلى الزبير تستعدي على زوجها، وتزعم أنه يصيب
 جاريتها. فأمر به فأحضر، فسأله عما ادّعت؟
 فقال هي سوداء، وجاريتها سوداء، وفي بصري ضعف، ويضرب
 الله برواقه. فأنا آخذ من دنا مني.
 ويرى المتنبي أن العين قد تنكر ضوء الشمس من رمي بها
 أصابها:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمي

وينكر الفم طعم الماء من سقم
 وإذا كان ضيق العين يعد من المعايب، فإن الشعراء في عصور الدول
 المتتابعة تغزلوا بالأتراك والأكراد. فهذا فتیان الشاغوري يتحدث عن
 حبيب ما أبى باللحظ سفك دمه⁽¹⁾:

أفدي الذي ما أبى باللحظ سفك دمي

لكن متى طلبت العطف منه أبى

ظبي من الترك أصمتني لواحظه

وأسهم الترك إن أصمت فلا عجا

ويتحدث الشاعر ابن عنين عن صغر العينين، وضيق المقل وهذا المعنى
 جديد في شعرنا العربي. وقد ألم به في مطلع قصائده:

(1) - ديوان ابن عنين - ص 34.

لاتعرضن لضيق المقل فتبيت من أمن على وجل
واترك ظباء الترك سائحة لاتعترض لحبائل الأجل
ويلاحظ أن بعض الشعراء الذين شهدوا الحروب الصليبية وتنقلوا في
الثغور المحتلة اتجهوا وجهة جديدة لم نعرفها من قبل في الشعر العربي.
حتى إن شاعراً كابن القيسراني قصر طائفة من أجمل شعره على
التحدث عن الفرنجيات. وسُمي قصائده المذكورة «النفرات».

العين الحاسدة

عرّفها ابن خلدون بأنّها:

«تأثير نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركاً من الذوات أو الأحوال، أو يفرط في استحسانه، أو ينشأ عن ذلك حيثئذ أنّه يروم معه سلب ذلك الشيء عن أن تصف به»⁽¹⁾.

وقيل هي نظر باستحباب مشوب بحسد، من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر. أمّا الحسد فهو تمني زوال النعمة عن الآخرين، أو تمني عدم حصولها، وكلّ عائن حاسداً، وليس كلّ حاسد عائنًا.

وقد ربط الله تعالى ما بين الحسد والسحر عندما أمرنا أن نتعوّذ منهما بقوله تعالى: ﴿من شرّ النقّات في العقّد، ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾. فالنقّات: هنّ السواحر اللواتي يعقّدن في سحرهن وينفثن في عقدهن.

واقتران الحسد بالسحر في هذه الآية يشير إلى وجود علاقة بينهما. ولعلّ هذه العلاقة هي التأثير الخفي الذي يكون من الساحر بالسحر، ومن الحاسد بالنظر مع اشتراكهما في عموم الضرر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تأثير العين بقوله تعالى:

(1) - المقدمة / 556/.

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر، ويقولون إنه لمجنون﴾⁽¹⁾

تقول العرب رجلٌ مَعِين ومعيون إذا أُخِذَ بالعين. وتقول العرب⁽²⁾:

«إنَّ العين تسرع بالإبل إلى أوصامها، وبالرجال إلى أسقامها».

وقال النبي ﷺ «لو سبق القدر شيءٌ لسبقته العين. إنَّ العين حق».

وفي الحديث عن جابر قال: قال النبي ﷺ «إنَّ العين تدخل الرجل القبر، وتدخل الجمل القدر» رواه أبو نعيم.

والجاحظ⁽³⁾ لا يترك أن ينفصل من العين الصائبة إلى الشيء المستحسن أجزاء لطيفة تتصل به، وتؤثر فيه. فيكون هذا المعنى خاصة في بعض الأعين كالخواص في الأشياء.

وبهذا الصدد قال الأصمعي:

رأيت رجلاً عيوناً سمع بقرةً تُحلب فأعجبه سخبها.

فقال: أئينهنَّ هذه؟ فقالوا «البقرة أخرى يورون عنها فهلكنا».

قال الأصمعي: وسمعتَه يقول:

إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. ومما يُروى أنَّ العرب قديماً قبل الإسلام كان الرجل منهم إذا أراد أن يصيب

(1) - سورة القلم آية 51.

(2) - ابن عبد ربه - العقد الفريد ج 7 ص 286.

(3) - الطبرسي - مجمع البان ج 5 ص 245.

الفصل الرابع

صاحبه بالعين تجوُّع ثلاثة أيام، ثم كان يصفه فيصرعه بذلك⁽¹⁾ وبهذا المعنى يقول الشاعر العربي:

ترميك مزلفة العيون بطرفها
وتكلُّ عنك نصالُ نبل الرامي

وقال آخر⁽²⁾:

يتقارنون إذا التقوا في مجلس
نظراً يزلُّ مواطن الأقدام

وقال آخر:

وجاؤوا إليه بالتعاون والرقى
فصبُّوا عليه الماء من شدة الثكس

وقالوا به من أعين الجن نظرة ..

ولو أنصفوا قالوا به أعين الأنس

وقد نقل المسعودي عن الجاحظ أنَّ البومة لاتخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظنُّ أنَّها حسناء..

وخوفاً من عيون الحشاد عمد الشاعر ديك الجن الحمصي إلى قتل جاريته، وبعد ذلك ندم على ما فعل⁽³⁾.

ياطلعةً طلع الحِمام عليها

وجنى لها ثمر الردى بيديها

(1) - الطبرسي - مجمع البان ج 1 ص 241.

(2) - القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ج 1 ص 161.

(3) - ديوان ديك الجن الحمصي.

رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَالَمَا
 رَوَى الْهَوَى شَفْتِي مِنْ شَفْتِهَا
 فَوْحِي نَعْلِيهَا وَمَا وَطِئَ الْحَصَى
 شَيْءٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَعْلِيهَا
 مَا كَانَ قَتْلُهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ
 أَخْشَى إِذَا سَقَطَ الْغُبَارُ عَلَيْهَا
 لَكِنْ ضَنْتُ عَلَى الْعَيُونِ بِحَسْنِهَا
 وَأَنْفَتُ مِنْ نَظَرِ الْحَسُودِ إِلَيْهَا
 وَلَقَدْ كَانَ الشُّعْرَاءُ الْعَرَبُ يَحْسِبُونَ حَسَاباً لِأَعْيُنِ الرِّقَبَاءِ وَالْوَاشِينَ.
 وَالْوَشَاءُ فَصَلَ فِي قِصَّةِ كُلِّ حُبٍ.
 وَهَلْ يَفْعَلُ النَّاسُ إِلَّا أَنْ يَرِاقِبُوا النَّاسَ؟
 وَلِذَلِكَ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَى إِشَارَاتِ الْعَيُونِ الَّتِي تَحْدُثُ بَلْغَةً
 لَا يَفْقَهُهَا إِلَّا أَصْحَابُهَا.
 وَلِلْعَيْنِ فِي شَعْرِ «أَبِي نَوَاسٍ» حَقٌّ عَلَى كُلِّ رَأْيٍ يَخْشَعُ لِلْمَحَاسِنِ^(١).
 يَأْتَارِكِي جَسَداً بَغِيرَ فُؤَادٍ
 أَسْرَفْتُ فِي هَجْرِي وَفِي إِبْعَادِي
 إِنْ كَانَ يَمْنَعُكَ الزِّيَارَةُ أَعَيْنٌ
 فَادْخُلِ إِلَيَّ بَعْلَةَ الْعَوَادِ

(١) - د. علي شلق - العين في الشعر العربي ص 37.

الفصل الرابع

إنَّ القلوب مع العيون إذا جنت
جاءت بليتها على الأجساد
وجميلات «عمر بن أبي ربيعة» كثيرات، وأكثر منهن نظراته بين
المحطَّب من منى.
ولدى كلِّ ملتمع بهاء؛ غير أنَّ رائعته في «نعم» أنست الرواة عناية
الأفواه بالمعلقات:

وترنو إليَّ. بعينها كما رنا
إلى ررب وسط الحميلة جؤذر⁽¹⁾
إذا جئت فامنح طرفك غيرنا
لكي يحسبوا أنَّ الهوى حيث تنظر
ثم يقول:

ولما التقينا بالثنئية أومضت
مخافة عين الكاشح المتنم
أشارت بطرف العين خشية أهلها
إشارة محزون ولم تتكلَّم
فأيقنت أنَّ الطرف قد قال: مرحباً
وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

(1) - د. علي شلق - العين في الشعر العربي ص 37.

ومن لطيف ما أورده ابن المعتز انتظاره غفلة الرقيب لتسرق عينه نظراً
جديداً⁽¹⁾:

أرُدُّ الطرف من حذري عليه

وأمنحه التجنُّب والصدودا

وأرصد غفلة الرقيب عنه

لتسرق مقلتي نظراً جديدا

العيون الحاسدة عيون تعرَّت من قيم الجمال الروحية واستحالت
عيوناً فارغة دأبها أن لاتغرَّد الطيور، وأن تدبل الورود.

تودُّ لو تستلُّ من الطير المغرَّد روحه، ومن الشجر الورق الجذور.

ذكر عن بعض العائنين أنه كانت تمرُّ به الناقة السمينة فيعينها ثم
يقول لحادمه:

خذ المكتل والدرهم وائتني بشيء من لحمها. فما تبرح حتى تقع
فتنحر.

ولابدُّ من الصبر على كيد الحسود، وعدم الاهتمام به.

فالحاسد - في الغالب - لا يتمتّع بحياة سعيدة، لأنَّه مشغول دائماً
بحقده وحسده. قال الشاعر:

اصبر على كيد الحسو د، فإنَّ صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ماتأكله

(1) - د. علي شلق - العين في الشعر العربي ص 84

الفصل الرابع

والعين تسرق وتنهب على حدّ تعبير الشاعر مان الموسوس⁽¹⁾.

من الأطباء طباء همّها الشُّعْبُ

وحليها الدرّ والياقوت والذهب

ياحسن ماسرقت عيني وما انتهبت

والعين تسرق أحياناً وتنتهب

إذا يدّ سرت فالحدّ يقطعها

والحدّ في سرقة العينين لا يجب

وشرّ العيون عند العرب هي خائنة الأعين التي تسارق النظر إلى الأشياء المحرّمة.

قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ سورة غافر آية 20.

يُروى أن أعرابية مرّت بجماعة من بني نمير، فأداموا لها النظر فقالت:
يا بني نمير ما فعلتم بقول الله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من
أبصارهم﴾؟

ويقول الشاعر:

فغضّ الطرف إنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

(1) - ابن عبد ربه - العقد الفريد - ج 7 - ص 162.

ولو وُزِنَتْ حلوم بني نمير
على الميزان ماوزنت ذبابا
والشاعر حاتم الطائي يفتخر بأنه يغضُّ البصر عن جارات قومه فلا
ينظر إليهن بسوء⁽¹⁾.

وماضراً جاراً يا ابنة القوم فاعلمي
يجاورني أن لا يكون له سترٌ
بعيني عن جارات قومي غفلةً
وفي السمع مني عن حديثهم وقز
وقد ورد في القرآن الكريم آية تخاطب المؤمنين وتطالبهم بغض
البصر:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾

ومن الملاحظ أن الآية استعملت كلمة «الأبصار» التي هي جمع
«البصر».

وهناك فرق في الدلالة بين كلمة «بصر» وكلمة «عين».
فكلاهما يطلق على العضو الباصر؛ غير أن كلمة «عين» تطلق دون
أن تتضمن دلالة على الإبصار، ولذلك استخدمت الآية كلمة
«الأبصار» لا «العيون».

(1) - مصطفى طلاس - مختارات شعرية - ص 54.

الفصل الرابع

واستعملت الآية كلمةً أخرى، وهي «يغضوا» ومادتها «الغض» ولم تستخدم كلمة (غمض) لأن الغمض يعني إطباق الجفون.

أما «غَضٌ» فتستعمل مع البصر والنظر والطرف عادةً.

والغض يعني تخفيف النظر، وعدم تركيزه⁽¹⁾.

وَرُوي عن المعلّي الصوفي⁽²⁾ قوله: شكوت إلى بعض الزهاد فساداً أجده في قلبي فقال: هل نظرت إلى شيء فتأقت إليه نفسك؟ قلت: نعم.

قال: احفظ عينيك؛ فإنك إن أطلقتها أوقعتك في مكروه، وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

إياك والنظر إلى كل مادعاك إليه طرفك، وشوقك إليه قلبك.

(1) - مرتضى المطهري - ترجمة حيدر آل حيدر «مسألة 1 الحجاب» - ص 95.

(2) - الأب لويس شيخو اليسوعي - مجاني الأدب - ج 2 - ص 27.

العين العمياء

البصرُ أغلى النعم؛ لكنَّه يرخص أمام نعمة الحياة.
هناك من ولد عديم البصر، أو فقد بصره خلال حياته فبقي متمسكاً
بغريزة البقاء، وعائق الحياة وأحبَّها كما يحبُّها المبصرون.
وهناك من فقد البصر، فأضاع معه الأمل، وضاعت في نفسه معاني
الوجود.
يقول ناصر الدين شافع علي الكناني العسقلاني وكان أديباً وشاعراً
مصرياً:

أضحى وجودي برغمي في الورى عدماً
إذ ليس فيهم وردٌ ولا صدرُ
عدمٌ عيني ومالي فيهما أثر
فهل وجود ولا عين ولا بصرُ
وقد قرن القرآن الكريم البصر بالبصيرة لفظاً ومعنى. قال تعالى:
﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا﴾.

الفصل الرابع

فالبصر كاملاً هو رؤية الأشياء بأبعادها، ويستوي فيه الإنسان والحيوان.

بل إنَّ حدة بصر البزاة والنسور والصقور تفوق مرات عديدة بصر الإنسان.

أمَّا البصيرة فهي رؤية معاني الأشياء، وإدراك حقائقها بالعقل الذي يتميز به الإنسان وحده.

يقول الأديب ميخائيل نعيمة في كتابه البيادر: «من أكمل كمالات العربية وأسمائها تميزها ما بين البصيرة والبصر، وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة بل توأمين من بطن واحد. لكنَّ ذاك الفرع غير هذا». ثم يقول: «البصر ومركزه العين يحصر كلَّ همٍّ في النقاط أشكال الأشياء وألوانها. في حين أنَّ البصيرة، ومركزها القلب، أو الوجدان، همُّها الوصول إلى بواطن الأشياء دون التلهي بمظاهرها، فالإنسان يدأبُان وراء المعرفة».

والعمى في منطق الإسلام هو عمى القلوب التي في الصدور، أو هو العمه في البصيرة.

وقد عبّر كثير من الشعراء العرب المكفوفين عن هذا الرأي بوضوح:

فبعد الله بن العباس ابن عم النبي ﷺ قال بعد أن كفَّ بصره:

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما

ففي لساني وسمعي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي ذحل
 وفي فمي صارم كالسيف مأثور
 وقال الشاعر أبو يعقوب الخريبي:
 فإن يك عيني قد خبا نورها
 فكم قبلها نور عين خبا
 فلم يعم قلبي ولكئما
 أرى نور عيني لقلبي سعى
 إن نور العين إذا خبا ذهب إلى القلب. هذا ماقاله أيضاً أحمد بن
 عبد الله الدائم:
 إن يذهب الله من عيني نورهما
 فإن قلبي بصير مابه ضرر
 أرى بقلبي دنياي وآخرتي
 والقلب يدرك مالا يدرك البصر
 قيل لبشار بن برد وقد أنشد قوله:
 كأن مشار النقع فوق رؤوسنا
 وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها
 ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا
 قط ولا شيئاً منها؟ فقال: «إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب، ويقطع عنه
 الشغل بما ينظر إليه من الأشياء؛ فيتوَفَّر حشيه، وتَتَقَدَّ قريحته»، ثم

والشاعر المنتجب العاني يتساءل⁽¹⁾:

وما أخو عينين وهو أعور؟

وميت حي وأعمى مبصر؟

وهو يريد بالأعور ذي العينين الأعمى عن النجدين.

والميت الحي: هو حي الجسم ميت الفؤاد عن سبل الرشاد.

ومثله قوله للضال:

فابك الغداة بدمع إن بكيت على

أعمى بصير له في الرأس عينان

الرؤية الجزئية هي رؤية الباصرة، والرؤية الكبرى الكلية هي رؤية
البصيرة وماقيمة البصر إذا انطفأت البصيرة؟

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم⁽²⁾

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صم

ومن طريف مقاله الشاعر على لسان أعمى⁽³⁾:

(1) - د. أسعد علي - فن المنتجب العاني - ص222.

(2) - د. علي شلق - العين في الشعر العربي ص75.

(3) - الأب لويس شيخو اليسوعي - مجاني الأدب - ج2 - ص164.

الفصل الرابع

سمعت أعمى مرةً قائلاً
يا قوم ما أصعب فقد البصر
أجابه الأعور من خلفه
عندي من ذلك نصف الخير

الفصل الخامس

- معاني البكاء الإنسانية
- شيخوخة العين
- أفعال العين وتأثيراتها
- «جولة فنية في آفاق العين»

من معاني البكاء الإنسانية

من أروع وأصدق الأشعار التي تجسّد المعاني في تفسير البكاء أبيات لابن الرومي قالها في وفاة ولده. فلقد أجهد بالبكاء وقال مخاطباً عينيه الباكيتين.

إنّ البكاء شفاء للنفس الحزينة ولكنه لا يرُدّ مفقوداً:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي

فجودا فقد أودى نظيركما عندي

فالدّم لم يُخلَق في جفن امرئ عبثاً:

لم يخلق الدّم في جفن امرئ عبثاً

إنّ البكاء لموجوع ومحروب

لم يخلق الدّم لامرئ عبثاً

الله أدري بلوعة الحزن

عن أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ عندما رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت إذ قاضت عيناه بالدّم، فقليل له ما هذا يارسول الله؟ فأجاب: «هذه رحمة الله جعلهما في قلوب عباده، وإنّما يرحم الله من عباده الرحماء».

في الدموع ضعف وقوة، فهي عند الشكالي صرخة في وجه العذاب.
وهي جوهر البلاغة إذا تعرّض النطق للاغتيال.
هي انبعاث النور في مبسم الفجر، وقوس قزح بين الغيوم وقطرات
ندى علي شواطئ الضنى في غابات الحنين، ومحنة النفس إذا استدّر
الدمع ذل الهوى، ومذلة السؤال.

فقد يكون البكاء سبباً في استدرار العطف للحفاظ على العهد.
يقول الشاعر قيس بن الخدّادية⁽¹⁾:

وقالت وعيناها تفيضان عبّرةً

بأهليّ بين لي متى أنت راجعُ؟

فقلت لها: بالله يدري مسافرٌ

إذا أضمرته الأرض ما الله صانعُ

فشدّت على فيها اللثام وأعرضت

وأقبل بالكُحل السحيق المدامعُ

إنّي لعهد الودّ راعٍ وإنّني

بوصيلك مالم يطوني الموت، طامعُ

لم يُخلَقِ الدمع في جفن امرئٍ عبثاً، فالشاعر العباس بن الأحنف
تسيل دموعه حينما رأى السيل قادماً من وادٍ قريب من المكان الذي
يسكنه الحبيب:

(1) - أدونيس - ديوان الشعر العربي - ص106.

يقول:

جرى السيل فاستبكاني السيلُ إذ جرى
 وفاضت له من مقلتي غروبُ
 وما ذاك إلا حين خبّرت أنه
 يمرُّ بوايد أنت منه قريبُ
 يكون أجاجاً ماؤه فإذا انتهى
 إليكم تلقى طيكم فيطيبُ
 فياساكني شرقي دجلة كلُّكم
 إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ
 إن لوعة القلب تستدرّ عصي الدمع؛ وهذه جنايات العيون.
 يقول البحثري⁽¹⁾:

بعينك لوعة القلب الرهين
 وفرط تتابع الدمع الهتون
 نظرت وكم نظرت فأقصدتني
 فجاءات البدور على الغصون
 ورئت نظرة أقلعت عنها
 بسكر في التصابي أو جنون

(1) - ديوان البحثري - ص 133.

فيالله ماتلقى القلوب الهوا
 ثم من جنيات العيون
 فقد تساهم الدموع في إطفاء لهيب القلب الذي يتحرق شوقاً للقاء
 المحبوب والظفر منه بكمال الوصال ونعيمه.
 يقول الشاعر الصوفي «المنتجب العاني»⁽¹⁾:
 إن كنت لي صاحباً قف لي بهيود
 وقل لعينك في أطلالها جودي
 عسى الدموع إذا انهلت غوارثها
 تُطفي لهيب سليب اللب معمود
 تخالفت زفراتي والدموع بها
 فهنّ ماين تصويب وتصعيد
 وهو يرى أنّ العاشق لا يلام إذا أضناه حبه، وتقرّحت من البكا
 عيناه:
 فلا تلم من شفه جواه
 وقرّحت من البكا عيناه
 ونلاحظ هنا صورة التأثر الشديد الذي يعانيه العاشق وتتجلى
 الصورة النفسية حيّة في العينين المجرّحتين من كثرة البكاء وحدّته
 (قرّحت).

(1) - فن المنتجب العاني - د. أسعد علي - 232.

الفصل الخامس

والشاعر قيس بن الملوح⁽¹⁾ يرى أنَّ محبوبته هي سبب هيمانه وبكائه الدائم:

معذبتي لولاك ماكنت هائماً
 أبيت سخين العين حرّان باكياً
 فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
 وأنت التي إن شئت أنعمت باليا
 أمّا الشاعر «نصيّب» فله في قلق العين العاشقة ساعة الهجر وعند
 التلاقي ما يحملنا همه ولو بعد مئات السنين:
 ومافي الأرض أشقى من محبّ
 وإن وجد الهوى حلو المذاق
 تراه باكياً أبداً حزيناً
 مخافة فرقة أو لاشتياق
 فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم
 ويبكي إن دنوا خوف الفراق
 فتسخن عينه عند التناهي
 وتسخن عينه عند التلاقي

(1) - مصطفى طلاس - مختارات شعرية - ص122.

ومن أعجب ما قيل في الدمع مأنسب إلى السري⁽¹⁾:

بنفسي من ردّ التحية ضاحكاً

فجئد بعد اليأس في الوصل مطمعي

إذا ما أبدى الغرائم سرائري

وأظهر للعدّال ما بين أضلعي

وحالت دموع العين بيني وبينها

كأنّ دموع العين تعشقه معي

وقول ماني الموسوس:

بكت عيني غداة البين دمعاً

وأخرى بالبكاء بخلت علينا

فعاتبت التي بخلت علينا

بأن أغمضتها يوم التقينا

(1) - أبو هلال العسكري - ديوان المعاني - 264.

شيخوخة العين

في فصل الخريف تذبل الورود، وتصفّر أوراق الشجر.
وفي خريف العمر يسري الكلال والوهن في خلايا وأعضاء الإنسان،
وتشيخ العيون، ويضعف البصر. تلك هي سنة الوجود؟
وهاهو شاعر الشباب أحمد رامي يأخذ دوره في ملعب الحياة
بعد أن ولّى عنه الشباب فوقف قبل وفاته على المنحنى مرتعشاً
يخشى الانزلاق وراح يعبر عن آخر مرحلة من مراحل العمر مجيئاً
على المتسائلين:

يقولون ماهذا الشحوب الذي نرى
بوجهك بل ماهذه النظرات
فقلت لهم: إنّي دفنت نضارتي
وقد ضربت في قلبي الظلمات
تشرّد لحظي ثم غشّته ترحّة
كما غشيت شمس الضحى المزناث
لقد كان برّاقاً وقد كان ضاحكاً
فراح يريق اللحظ والضحكات

وإذا بلغ الإنسان أُرذل العمر راح البصر يخبو شيئاً فشيئاً وليس من
سبيل إلى إعادة نضارته وتألقه.

ويتطلّع الإنسان العجوز أمامه وهو ينطلق متعثراً في خريف العمر.
فإذا رأى لا يرى سوى شمس وجوده تجري مسرعة نحو الغروب
ويتمثل قول أبي حازم الباهلي:

ولّى الشباب فخلّ الدمع ينهمل

فقد الشباب بعقد الروح متّصل

أفعال العين وتأثيراتها «جولة فنية في آفاق العين»

في ظلال العينين يتعلم الإنسان معنى الحب، وتبسط الأزاهر أيديها
للتسليم، ويرقص العشب على إيقاع الندى.

يقول المتنبي:

لعينيك مايلقى الفؤاد ومالقي
وللحبِّ مالم يبقَ مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه
ولكنَّ من يبصر جفونك يعشق
وفي قصيدة، نهج البردة⁽¹⁾ لأمير الشعراء أحمد شوقي نرى الشاعر
يستغيث بالمقتول للقاتل ويستنجد بالغزال للسَّبع:

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
أَحْلُ سَفْكِ دَمِي فِي الْأَشْهَرِ الْحَرَمِ
رَمَى الْقَضَاءُ بَعِينِي جَوْذَرَ أَسَدًا

ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم

(1) - أحمد شوقي - الشوقيات - المجلد الأول - ص190.

لما رنا حدثنني النفس قائلةً
ياويح جنبك بالسهم المصيب رُمي
ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً
أسهرت مضناك في حفظ الهوى فمِ
الحسن في الخدق الرواني، وسر السعادة في الدنيا تجلوه عينان على
حدّ تعبير الشاعر بدوي الجبل:
ويانفسي عبدتك عن يقينٍ
وحسبي قد عبدت بك الإلهما
أحب الحسن في الخدق الرواني
وفي ثغر الفتاة وفي لماها
سر السعادة في الدنيا وإن خفيت
تجلوه منك على الأكوان عينان
آمنت بالحب ماشاءت عذوبته
آمنت بالحب فهو الهادم الباني
وحين يزور الطيف المحبوب أجفان الشاعر يرتفع على أجنحة الهوى
إلى عالم مسحور من رؤى العينين:
رفعتني بجناحي قدرة وهوى
لعالم من رؤى عينيك مسحور

تعبٌ من حسنه عيني فإن سكرت
 أغفت على سندسي من أساطير
 أخادع النوم إشفاقاً على حُلُمٍ
 حان على الشفة اللمياء مخمور
 وزار طيفك أجفاني فعطَّرها
 ياللطيف الغريرات المعاطير
 والعيون لاتبوح بما خبَّأته من أسرار القدر في طيَّات أهدابها التي
 تجاري المدى في ابتكار الكون تلو الكون:
 يقول الشاعر سعيد عقل:
 ألعينيك تأنى وخطر
 يفرش الضوء على التلِّ القمرو⁽¹⁾
 ضاحكاً للغصن مرتاحاً
 إلى ضفَّة النهر، رفيقاً بالحجر
 علَّ عينيك إذا آنست
 أثراً منه عرا الليل خدر
 من ترى أنت إذا بُحت بما
 خبَّأت عيناك من سرِّ القدر

(1) - سليمان العيسى - حب وبطولة.

نسج أجفانك من خيط السهى
كل جفن ظلّ دهرًا يُنتظر
مفرد لحظك إن سرّحته
طار بالأرض جناح من زهر
وإذا هدبك جاره المدى
راح كون تلو كون يبتكر
تفتك سهامها في قلب المحب فيجيب ابن المعتز:
قالوا اشتكت عينه فقلت لهم
من كثرة الفتك نالها الوصب
حمرتها من دماءٍ من قتلت
والدم في النصل شاهد عجب

ويقول آخر:

قالوا الحبيب شكا. فجعلت فداءه
رمداً أضرب بعينه كالعندم
فأجبتهم مازال يفتك لحظه
في مهجتي حتى تلطخ بالدم
ويطالب الشاعر أحمد شوقي محبوبه بأن يقف عند حدّه وأن يُغمد
سيف لحظه ألا يمكن إعلان هدنة مؤقتة⁽¹⁾:

(1) - أحمد شوقي - الشوقيات ص 121.

قف باللوايح عند حدك يكفيك فتنة نار حدك
واجعل لغمدك هدنة إن الحوادث ملء غمدك
نظرت إليك من الفتور وما أثقت سطوات حدك
أعلى روايات القنا ما كان نسبته لقدك

أين تقوى الله والتزام الحدود؟

لحظها لحظها رويداً رويداً

كم إلى كم تكيد للروح كيدا⁽¹⁾

كف أو لا تكف إن بجنبي

لسهاماً أرسلتها لن تُرداً

تصل الضرب مأرى لك حداً

فاتني الله، والتزم لك حداً

أو فصغ لي من الحجارة قلباً

ثم صغ لي من الحداث كيدا

هذي الجفون القاتلة لا ترحم؛ إنها جميلة تهتك الألباب خلف
حجابها فهي الشمس المنيرة في الأنوار تخطف الأفدة والأبصار!!

في ذي الجفون صوارم الأقدار

راعي البرية يارعاك الباري

(1) - المرجع نفسه - ص 117.

مأنت في هذا الحلي إنسية
 إن أنت إلا الشمس في الأنوار
 تتهتك الأبواب خلف حجابها
 مهما طلعت فكيف بالأبصار؟

وقد تفتك العين بسيف لحظها فتريق دم العشاق ولاذنب لها في
 المحصلة. يقول الشاعر أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري في
 قصيدته المشهورة:

أقيام الساعة موعده؟	ياليل الصب متى غده
أسف للبين يرّده	رقد السمار فأزقه
خوف الواشين يشرده	كلف بغزال ذي هيف
في النوم فعزّ تصيده	نصبت عينك له شركاً
سكران اللحظ معربه	صاح والخمر جنى فمه
وكأن نعاساً يغمده	ينضو من مقلته سيفاً
والويل لمن يتقلده	فيريق دم العشاق به
عيناه ولم تقتل يده	كلا لاذنب لمن قتلت
وعلى خديه تورّده	يامن جحدت عيناه دمي
فعلام جفونك تجحده؟	خداك قد اعترفا بدمي

إن السيف لتنبو أحياناً فلا تستطيع أن تحقق الهدف ولكن

الفصل الخامس

العيون تدمي القلوب بألحاظها القاتلة على حد تعبير شاعرنا
البحثري⁽¹⁾:

وغرير يلقي صباة مزن
مدّة الليل في صباة كرم
بث عن راحتيه شارب خمر
وكأني للسكر شارب سم
وبحق إن السيوف لتبو
تارة والعيون باللحظ تدمي
وقريب من هذا المعنى قول المتنبي⁽²⁾:
ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عمل السيوف عوامل
وقوله:

كل جريح ترجى سلامته
إلا فؤاداً دهنه عيناها
كما أنها لا ترى في شخص المحبوب إلا الحسن على حد تعبير عمر
بن أبي ربيعة⁽³⁾:

(1) - ديوان البحثري - ص 299.

(2) - ديوان المتنبي - ج 3 - الصفحات 252 - 271.

(3) - شكري فيصل - تطور الفزل بين الجاهلية والإسلام ص 366.

ولقد قالت لجارات لها وتعرّت ذات يوم تبترد
أكما ينعتني تبصرني عمركن الله أم لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين من تود
حسداً حمّله من أجلها وقديماً كان في الناس الحسد
ولها عينان في طرفيهما حور منها وفي الجيد غيد
كلما قلت متى ميعادنا؟ ضحكت هند وقالت بعد غد

ويقول ذو الرمة في محبوبته مية:

ومية أحسن الثقلين جيداً
وسالفة وأحسنهم قذالاً
فلم أر مثلها نظراً وعيناً
ولا أمّ الغزال، ولا الغزالا

كما أن الشاعر المجنون تنكر عينه كل منظر بعد المحبوبة التي ملكت
عليه سمعه وبصره فلم يعد يرى الحسن إلا فيها⁽¹⁾:

كأنني أرى الناس المحبين بعدها
عصارة ماء الخنظل المتفلق
فتنكر عيني بعدها كلّ منظر
ويكره سمعي بعدها كل منطق

(1) - أدونيس - ديوان الشعر العربي - ص 276.

ويشير ابن الرومي إلى وقع سهام العين:

نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها

ثم انثنت عنه فكاد يهيم

ويلاه إن نظرت، وإن هي أعرضت

وقع السهام ونزعهن أليم

ويتحدث قيس عن سهام لبني القاتلة التي لاتخطئ الهدف:

برت نبلها للصيد لبني ورّشت

ورّشت أخرى مثلها وبرت

فلما رمتني أقصدتني بسهمها

وأخطأتها بالسهم حين رمت

ويرى البحتري أن العين باب إلى القلب⁽¹⁾:

تزوّدت منها نظرة لم تجد بها

وقد يؤخذ العلق الممنع بالغصب

وما كان حظ العين في ذاك مذهبي

ولكن رأيت العين باباً إلى القلب

ومن الطريف أن ابن المعتز يقارن بين ألوان الفتنة في الحدود والورود

(1) - ديوان البحتري - ج 2 - 32 - (دار الكتب العلمية - لبنان).

والأصداغ والعيون ليقرر في النهاية أن فتن العيون أجل وأعظم من
سواها:

ورد الخدود أرق من	ورد الرياض وأنعم
هذا تنشق الأنوف	وذا يقبله الفم
وإذا عدلت فأفضل الور	دين ورد يلثم
هذا يُشَم ولا يضم	وذا يُشَم ويضم
سبحان من خلق الحدود	شقائناً تبسم
وأغارها الأصداغ فهي	بها شفيق يعلم
واستنطق الأجفان فهـ	ي بلحظها تتكلم
وتبين للمحجوب عن	سر الحبيب فيفهم
وتشير إن رأت الرقيـ	ب بلحظها فتسلم
فتن العيون أجل من	فتن الخدود وأعظم

العيون تسقي الهوى الذي يدب في الجسم ديب المدام.

يقول الشاعر الخاسر:

سقتني بعينيها الهوى وسقيتها

فدب ديب الخمر في كل مفصل

جاء أبو نواس بأروع منه بقوله:

أحب اللوم فيها ليس إلا

لترداد اسمها فيها ألام
ويدخل حبها في كل قلب
مداخل لاتغلّقها المدام
وفي هذا الأفق قول المتنبي:

وللسرّ مني موضع لايناله
نديم ولايفضي إليه شراب
العينان والقلب أعضاء في الجسم؛ ولكنها عند الأدباء شيء آخر،
علم مستقل.

وقد تكون العينان سبباً في ابتلاء القلب بالهوى.
قال الأصمعي: تقدّمتُ إلى أعرابي يقال له إسماعيل بن عمّار.
وإذا هو يفتل أصابعه، ويتلّهف. فقلت له: علام تلّهف؟ فأنشأ
يقول⁽¹⁾:

عيناى مشؤومتان ويحهما!!
والقلب حيران مبتلى بهما
عرّفته الهوى بظلمهما
ياليّتى قبلهما عدّتهما
هما إلى الحين قادتاهما
دلّ على ما أجنّ دمعهما

(1) - أمالي المرتضى - الجزء الأول - 499.

سأعذر القلب في هواه فما
 سبب هذا البلاء غيرهما
 وقد تسبب العين اندفاعاً إلى اقتراف الإثم، ودخول النار:
 لما نظرت إليّ عن حدق المها
 وبسمت عن متفتّح النوار
 وعقدت بين قضيب بانٍ أهيف
 وكثيب رمل عقدة الزنار
 عقرت خدي في الثرى لك طائعا
 وعزمت فيك على دخول النار
 والعين تظهر مافي نفس صاحبها من بغض أو كراهية. فهذا قيس بن
 ذريح يتحدث عن الوشاة فيقول⁽¹⁾:
 أمسى وشاتك قد دبت عقاربها
 وقد رموك بعين الغش وابتدروا
 تريك أعينهم مافي صدورهم
 إنَّ الصدور يؤدي غيبها النظر
 والعين ترى مايشاء المحبوب لا مايشاء المحب يقول الشاعر بدوي
 الجبل:

(1) - أدونيس - ديوان الشعر العربي - ص292.

مدله فيك مافجر ونجمته
 موئه فيك ماقيس وليلاه
 سكبت قلبك في وجدانه فرأت
 يا عز ما شئت لامشاء عيناه
 إن العين الذكية هي العين التي تعرف كيف تخذع الوشاة. يقول أبو
 الشيص:

إذا مالتقينا والوشاة بمجلس
 فليس لنا رسل سوى الطرف للطرف
 فإن غفل الواشون فرت بنظرة
 وإن نظروا نحوي نظرت إلى السقف
 وتتعلل لغة الكلام عند الوداع، ويشدو اسحق الموصلي بشعره
 قائلاً:

ولما رأينا البين جد جده
 ولم يبق إلا أن تبين الركائب
 دنونا فسلمنا سلاماً مخالساً
 فردت علينا أعين وحواجب
 تصد بلا بغض وتخلص لحة
 إذا غفلت عنا العيون الرواقب

أما المستعين بالله فكان يسكت عن الكلام مستعيناً بلغة الهوى
والعيون كي تفصح عما يدور بينه وبين حبيبته من شؤون
وشجون.

تكلم منا في الوجوه عيوننا
فنحن سكوت والهوى يتكلم
ونغضب أحياناً ونرضى بطرفنا
وذلك فيما بيننا ليس يعلم
أما التلعفري (1197م - 1277م) فيحوم حول نار الوجنات ويسكر
من خمر اللواظ حيث يقول⁽¹⁾:
أدارت من لواظها كؤوسا
فأنستنا السلاف الخندريسا
وأبدت خدها القاني فكنا
هناك لنار جنتها مجوسا
فلا والله ماسلبت عقولاً
لنا لكنها سلبت نفوساً
وقد يستدل بالنظر عن الضمير. ومنه قولهم «شاهد البغض
للحظ»⁽²⁾:

(1) - د. عمر موسى باشا - أدب الدول المتتابعة - ص 438.

(2) - ابن عبيد ربه - العقد الفريد - ج 3 - ص 68.

وقول زهير:

فإن تك في صديق أو عدو
تخبرك العيون عن الضمير

وقول ابن أبي حازم:

خذ من العيش ماكفى
ومن الدهر ماصفا
عين من لا يحب وصـ
لك تبدي لك الجفا

ويقول عمر بن أبي ربيعة⁽¹⁾:

وقلن: أهذا دأبك الدهر سادرا
أما تستحي أو ترعوي أو تفكر
إذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وما أجمل مانا جى به الشاعر علي الناصر عيني محبوبته لا لأنهما
حورا وان دعجاوان بل لأنهما عميقتان بأسرار الحب⁽²⁾:

(1) - د. شكري فيصل - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام - ص341.

(2) - خليل الهنداوي - السير الذاتية - ص169.

إني أشاهد في عينيك ما جمعت
 هذي الطبيعة من إبداع فنان
 ففيهما أقرأ الآيات مكتشفاً
 سر الورى فهما وحيي وقرآني
 ومنهما مصدر الإلهام يرفعني
 على جناحيه فوق العالم الفاني
 أطير في عالم الأحلام مبتهجاً
 مجرداً من تباريحي وأحزاني
 فناظري وثني في تعبده
 يرنو إليك بتقديس وإيمان
 ويضطرم الشوق في غدير العين فيرى الدكتور إبراهيم ناجي⁽¹⁾ في
 عيني محبوبته بحراً وعاصفة وزورقاً يرتطم بصخور المجهول:
 يا للغديرين في عينيك إذ لمعا
 بالشوق يومض خلف الماء مضطرباً
 كأنني ناظر بحراً وعاصفة
 وزورقاً بالغد المجهول مرتطماً
 وأين منه ذلك الحبيب الساهر الذي يعبق سحره كأنفاس الربا
 ويسرح طرفه كأحلام المساء:

(1) - أحمد المعتصم بالله - ناجي شاعر الوجدان الذاتي - ص 66.

أين من عيني حبيب ساهر
 فيه نبل وجلال وحياء
 واثق الخطوة يمشي ملكا
 ظالم الحسن، شهى الكبرياء
 عبق السحر كأنفاس الربا
 ساهم الطرف كأحلام المساء
 مشرق الطلعة في منطقته
 لغة النور وتعبير السماء
 وهذا علي بن الجهم تفتنه العيون البغداديات فيقع في حبال الهوى
 بفعل العين بين الرصافة والجسر:
 عيون المها بين الرصافة والجسر
 جلبن الهوى من حيث أدري ولأدري
 أعدن لي الشوق القديم ولم أكن
 سلوت ولكن زدن جمرأ على جمر
 سلمن وأسلمن القلوب كأنما
 تشكُّ بأطراف المثقفة السمر
 خليلي ما أحلى الهوى وأمره
 وأعرفني بالخلو منه وبالمر

وقد تكون العين رقيقة بالفؤاد على حد تعبير أبي نواس:

وغرير الشباب محتبك الحسن

على جيده مناط التميم

فهو عف الجفون في النظر العم

د حذاراً على فؤاد النديم

العين وحدها لها حياة، والقلب وحده له حياة، وقد تفرح العين والقلب يتألم.

يقول الشريف الرضي:

تَلَدُّ عيني وقلبي منك في ألم

فالقلب في مأثم والعين في عرس

كما أن العين تنطق، وتحدث الأحاديث الطوال؛ فهي تأمر وتنهى، وتعد وتؤمل ولكنها لا تنفي:

وعد لعينيك عندي ماوفيت به

ياطول ماكذبت عيني عيناك

ولها دائرة استعلامات تتجسس لها على القلب، فتهتك ستره، وتذيع سره.

والشاعر حائر بينهما، متعجب منهما:

الفصل الخامس

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى

من علم العين أن القلب يهواك؟

والعين تبصر من الحجاز من في العراق، وترمي بسهام فتونها من ذي
سلم فتصيب من في بغداد فتسبي وتصبي لاتمنعها شوامخ الجبال،
ولاشواسع البيد.

سهم أصاب وراميه بذي سلم

من في العراق لقد أبعدت مرمك

والعين تحصي عدد شهدائها، وتسجل أسماء من تصيبهم سهامها،
وتقرأ على الشاعر من وراء صاحبها فيشهد جناية العين، ويقرر براءة
الحبيبة؛ لأنها لاتدري ماجنت عيناها:

كأن طرفك يوم الجزع يخبرنا

بما طوى عنك من أسماء قتلاك

وحين تلتفت العين يتلفت القلب.

ولقد مررت على ديارهم

وظلولها بيد البلى نهب

فوقفت حتى لَجَّ من لغب

نضوي ولَجَّ بعذلي الركب

وتلفتت عيني فمدَّ خفيت

عني الطلول تلتفت القلب

في بحر عينيها يبدو الأمل أفسح من سطح المعمورة، ينتشر غوصاً
في الماضي وتحليقاً في المستقبل حيث يقول أدونيس:

حينما أغرق في عينيك عيني
ألمح الفجر العميقا
وأرى الأمس العتيقا
وأرى مالست أدري
وأحس الكون يجري
بين عينيك وبينني

تتكشف حقائق الحياة الجميلة من قراءة أحاديث العين كما في قول
النبي ﷺ: «عينان لآتمشهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين
باتت تحرس في سبيل الله».

والروعة في المجاز الذي ذكر العين نيابة عن الإنسان كله؛ فكأن
الإنسان جُمع في عينيه عندما يجاهد، أو يتجه إلى الله مستغفراً متعبداً.

وكما تتصل سلامة عيني الفرد بعيني المجتمع فإن العين تتصل
بالمعنى؛ ولذا يقرّرون في قواعد الإعراب للبصر فعلين.

رأى البصرية؛ ورأى البصرية أو القلبية.

ويطلُّ البصر على البصرية؛ بل تتجلّى البصرية في البصر.

المحبة بصرية قلبية وكلية.

فمن باب العينين يتم الدخول إلى عالم القلب وبعدها يكون معراج

الوفاء المقدس إلى العين الصافية ينبوع الحب الأصغر.
 عين الجسد الجميلة منطلق، وعين اليقين غاية.
 وفي ساعة الحب تتحد العيون فتصير العين قلباً والقلب عينا.
 العين كتاب كشاف في مكتبة الوجه.
 وخطاب العيون فنون على حد تعبير الدكتور أسعد علي⁽¹⁾:
 عينك كتاب في آب
 تنقلان البحر إلى الجبل
 فأصبح في شاطئ الأمل
 ياحبييتي أحب أن أسمع منك نشيد الأناشيد
 ونشيد الإنشاد، وأغنية الحب، وسورة مريم
 وكل ماصبا إليه المحبون، وأنت تعرفين أنك تستطيعين
 اختصار كل ذلك بنظرة عميقة زرقاء كالبحر والسماء...».
 وفي عين العظيم تصغر العظائم كما يقول المتنبي:
 على قدر أهل العزم تأتي العزائم
 وتأتي على قدر الكرام المكارم
 وتعظم في عين الصغير صغارها
 وتصغر في عين العظيم العظائم

(1) - د. أسعد علي - مسرح الجمال والحب والفن - ص 159.

وقال جبران خليل جبران في كتابه المجنون⁽¹⁾:
 قالت العين يوماً لرفيقاتها «الحواس إنني أرى وراء هذه الأودية جبلاً
 مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلاً».
 فأصغت الأذن لحديثها ثم قالت لها:
 «أين ذلك الجبل الذي تنتظرين؟ إنني لأسمع صوته».
 ثم قالت اليد:
 «أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه فليس هنالك جبل البتة».
 وقال لها الأنف: «لأقدر أن أشمه. ألا إن وجوده لمستحيل».
 فتحوّلت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها.
 أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل
 هذا الضلال.
 وبعد البحث والتدقيق قررن بإجماع الآراء:
 (إن العين قد خرجت ولاشك عن صوابها).
 أما الأخطل الصغير شاعر الحب والشباب فيخاطب المحبوبة التي
 تربعت على عرش الجمال⁽²⁾:
 الصبا والجمال ملك يديك
 أيُّ تاج أعزُّ من تاجيك

(1) - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران - ص 38 - دار صادر بيروت.

(2) - ديوان الأخطل الصغير - ص 34 و 45.

نصب الحسن عرشه فسألنا
من تراها له فدلُّ عليك
فاسكبي روحك الحنون عليه
كانسكاب السماء في عينيك
ويعاتب برفق قائلاً:

يا عاقد الحاجبين على الجبين اللجين
إن كنت تقصد قتلي قتلتني مرتين
تبدو كأن لاتراني وملء عينك عيني
ومثل فعلك فعلي ويلي من الأحمقين!!
ولكنها ظالمة لاترحم؛ فبكاء الشاعر يصل إلى حدود اليأس:

عش أنت إني متُّ بعدك⁽¹⁾
وأطل إلى ماشئت صدك
ماكان ضروك لو عدلت
أما رأيت عيناك قدك
وجعلت من جفني متكأً
ومن عيني مهديك
وحياة عينك وهي عندي
مثلما القرآن عندك

(1) - ديوان الأخطل الصغير - ص143.

ماقلب أمك إن تفارقها ولم تبلغ أشدك
 فهوت عليك بصدرها يوم الفراق لتستردك
 بأشد من خفقان قلبي يوم قيل خفرت عهدك
 والمحـب لا يستطيع لحبه كتماناً؛ لأن العين تفضح صاحبها. وعبث
 الهوى أقوى من الكتمان.
 يقول الأخطل الصغير في قصيدته «عروة وعفراء» شارحاً قصة
 الطفلين العاشقين⁽¹⁾:

وإذا التقى النظران تلمع أسطر
 يعيا بحل رموزها الولدان
 حتى إذا كبرا تولّى شرح ما
 لم يفهما قلباهما الخفقان
 فإذا الوداد هوى وصادف تربة
 بكرة فطاب مغارساً ومجاني
 ويح المحب إذا تملكه الهوى
 نمت به عينان فاضحتان
 عبثاً يحاول ذو الهوى كتمانـه
 عبث الهوى يقوى على الكتمان

(1) - ديوان الأخطل الصغير، دار الكتاب العربي، بيروت - ص 289.

الفصل الخامس

ويقسم الشاعر نديم محمد بعيني محبوبته مؤكداً التزامه وثباته على
الوفاء والحب⁽¹⁾:

لاوعينيك ماهجرت، ولا

ولا مرّ في ظنوني جفاء

أرجعتني إليك نفس لها الله

وعهد له عليّ الوفاء

أما الشاعر رفيق الفاخوري فيرى أنه كان يتخبط في الظلام على غير
هدى إلى أن أطل شعاع النور من عينيها فاهتدى إلى الحب، وانجلى
عنه الهموم والأحزان:

به أبصرت عيني ولم أك مبصراً

وهبت رياحي وانجلى غمرة الكرب⁽²⁾

ولولا شعاع بين عينيهِ راعني

وشرد عقلي ما هتديت إلى الحب

والأجمل من عينيها حب الشاعر سعيد عقل لعينيها⁽³⁾:

أجمل من عينيك حبي لعينيك

فإن غنيت غنى الوجود

(1) - مجلة القيثارة، العدد 12 - ص9.

(2) - مصطفى طلاس - مختارات - ص498.

(3) - مجلة القيثارة - العدد 12 - ص3.

كنت ييالي فاشتملت الشدا

فيه، ترى كنت ييال الورود؟

وقد تذوّق الشاعر عبد الله الفيصل طعم الهوى بعد أن عاش زمناً
هانئ النفس مطمئن البال.

فانقلبت حاله، لأن المحبوبة أصبحت شغله الشاغل يتلظى قلبه حباً
وحينئاً، ومن بريق الشوق في عينيها يشعل نيران الحنين:

من أجل عينيك عشقت الهوى
بعد زمان كنت فيه الخلي
وأصبحت عيني بعد الكرى
تقول للتهيد لا ترحل
من بريق الوجد في عينيك أشعلت حنيني
وعلى دربك أتى رحت أرسلت عيوني
الرؤى حولي غامت بين شكّي ويقيني
والمنى ترقص حولي على لحن شجوني

وفي تجربة الضياع لدى الشاعر عبد المعطي حجازي يواجه الشاعر
كآبته بصمت، ويود لو يهرب إلى عينيها بعد أن فقد إيمانه:

من بعد أن فقدت إيماني، وصرت ملحدا

عيناك ملجأى الأخير
 أمسح خدي فيهما
 منتظراً نهايتي في بقعة الضوء المثير
 عيناك عشب ندى
 أفرش ظلي هنيهة ثم أواصل المسير
 عيناك ياللكلمتين لم تقالا أبداً
 خانهما التعبير حتى ظلّتا كما هما
 راهبتين تلبسان الأسودا
 تنتظران ليلة العرس سدى

إلا أنّ عينيها غابة أحزان الشاعر، وقصيدته السوداء الرائعة
 ترتطمان بجدار الغربة الناهض رغم الوله العميق والتعشق، والتناهي
 في الحب:

فجأة صرنا غريبين وحيدين نثير الشفقة
 تلتقي أعيننا حيناً وتشرّد
 ثم ترتد بلا ذكرى كأننا ماالتقينا

الخاتمة

الخاتمة

هذه جولة واسعة في حدائق الشعر العربي قديمه وحديثه تتبّعنا فيها
مقاله الشعراء في وصف العيون وأفعالها وتأثيراتها وتعرّفنا على أساليبهم
في التعبير عن الجمال ونظرتهم إليه في مختلف العصور.

وهذه هي صورة العين كما رسمها شعراؤنا على امتداد العصور
معبرين عن تجاربهم وانفعالاتهم وإحساساتهم الجمالية. فهل حصل تغيير
في الذوق العربي عبر هذه العصور استجابة لحاجات جمالية جديدة
عندهم، ولدتها أُمّاط المعيشة، والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية
والثقافية وغيرها.

لقد اختلف الإنتاج الجمالي بمضمونه وبأبعاده عبر القرون. وربما
نجمت المغالطة الكبرى في الأطروحات النظرية الجمالية عن مزج الأزمنة
التاريخية المختلفة عند معاينة المنتجات الجمالية.

ومن الملاحظ أنّ التواصل بين الماضي والحاضر يتراوح ما بين
الاستفادة من قيم الماضي الجمالية، وتقديس الماضي لمجرد كونه ماضياً،
واقحامه في الحاضر كمثل أعلى جمالي.

وتبقى الصلة الفنية بالماضي من الصلات الهامة⁽¹⁾.

(1) - أطروحات جمالية - محمد الجندي - دمشق 1985.

وقد ساعد ذلك على احتفاظ اللغة بالكثير من موروثاتها القديمة، وعلى احتفاظ أدب اللغة بالكثير من النماذج الموروثة لكن التطور بقي مستمراً عبر التاريخ شكلاً ومضموناً.

إنَّ المعاني التي تعاقب عليها شعراء العصر الجاهلي في الحديث عن العيون وأوصافها متقاربة تشترك في الصورة الخارجية، حيث اعتمدوا على التشبيه والمقاربة وتداولوا ذكر عيون الغزلان والجانح. وأعربوا عن رقة شعورهم وإحساساتهم بلغة غدب جرسها، حلوة ألفاظها معتمدين على التشبيه الحسي المستمد من الحياة التي كان يحياها هؤلاء الشعراء الجاهليون ورقة الحياة الداخلية التي كانت تنطوي عليها نفوسهم. في الرقة يبدو الإحساس. وفي الخشونة تبدو الصورة الحسية التي تعكس ذلك الإحساس. وإذا تجاوزنا العصر الجاهلي إلى مآتله من عصور لاحظنا أن الذوق العربي الأصيل بقي محافظاً على ما كان عليه في السابق.

العيون السود الطبيعية هي التي انتشى العربي بلمحاتها، وتكحلت عيناه بلحظاتها الساحرة. فوضع لها الشعراء كياناً جمالياً متعدد المعاني والصفات، واتخذوه مقياساً للجمال.

أما اللون الأزرق في العيون فكان علامة فارقة للأعجمي ذمها الشعراء العرب ووصموها بالقباحة والحسد.

ولكن العيون الزرق أخذت تتكاثر بين مشاهير العرب في العصر العباسي الذي كان الكثير من الخلفاء فيه ينتمون إلى أمهات روميات وتركيات.

شبهوا زرقة العين بزرقه عتاق الطير؁ أو بزرقه حدّ السيف لـبزرقه السماء لأنّ جمال غيوم السماء في الصحراء يطغى على جمال الصفاء والزرقه.

ولذا تحوّلت كراهية العيون الملونة التي سادت في عصور الجاهلية والإسلام إلى حب وإعجاب وخصوصاً في العصر الحديث الذي أصبح فيه حضور العيون الخضر والزرق واضحاً تزخر به روائع الغزل الحديث. إنّ الشاعر القديم كان يصف الأشياء كما تبدو لعينه. ولذلك جاءت صوره شكلية خارجية تعتمد على تسطيع الصور وعدم ربطها بجوهر الرؤية الانفعالية للحياة.

وهي أشبه ماتكون بزخارف الخاتم المحكمة الصنع نعجب بإتقانه وتناوّل دقة صياغته.

ولقد تطوّرت الصورة في الشعر الحديث وانتقلت نقلة واسعة من المباشرة إلى الإيحاء. من المنظور المادي الشكليّ إلى جوهر الرؤية الانفعالية العميقة؁ وإلى الرحلة عبر الداخل؁ وماتعلق بها من تموجات نفسية نابضة بالانفعال ورنين اليأس؁ وألم الروح الرقيقة المتعطشة للنور والنقاء.

لقد جسّدت الكلاسيكية العربية من خلال شخصيتها الغنائية الواحدة أصلاً والمتجدّدة شكلياً عبر التاريخ وحدة التراث العربي على الصعيدين الفني والجمالي من جهة. وديمومة الإيقاع الغنائي العربي من جهة أخرى. وتلك أدّت إلى نفس الحدود الزمانية والمكانية الفاصلة بين شاعر وآخر كامرئ القيس وجميل بثينة وابن زيدون ونزار قباني.

لقد امتدت الكلاسيكية الغنائية العربية لترصد تموجات العقل العربي، وأجواءه الجمالية ولم تتلکأ على عتبة الشعر العربي الحديث لتتجمد.

لقد كان الغزل في شبكة الصور الحسية للشعر التقليدي الشارة المميزة للتراث العربي. والغزل بالمعنى الحضاري رمز لتجدد الحياة وخصوبتها واستمرارها. إنه تفتح الذات الإنسانية على ما في داخلها ومحاولها في اندفاع للأخذ والعطاء والتفاعل⁽¹⁾.

... وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن صورة العين أو مجموع الصور لا تشكل وحدها العمل الفني لأنها أجزاء من كل عام ولا بد من ربطها بهذه الأجزاء، أو دراستها في ضوءها.

هذه دراسة انتقائية في رحاب أشعار ملأى بالحياة. كان فيها شعراؤنا العرب مبدعين في ابتكار المعاني وصياغة الألفاظ والتعبير عن المشاعر والأحاسيس وتذوق الجمال. ولذا خلّفوا لأجيالهم وللأجيال اللاحقة تراثاً رائعاً في وصف العيون.

ومنذ البداية وضعت في حسابي أنه لابد من الوقوع في أخطاء كثيرة، لقد حزمت أمري مرات عديدة وفي كل مرة كانت تتردد خطاي وكنت أشعر أن فصولاً مازالت بحاجة إلى مزيد من الأناة، وأن بعض المواضيع مازالت تحتاج إلى كتاب كي تبلغ تكاملها.

ولكن هذا لم يمنعني من متابعة السير على هذه الطريق واضعاً نصب عيني أن أقدم شيئاً في هذا المجال خير من ألا أقدم شيئاً على الإطلاق.

(1) - دراسات في الشعر العربي الحديث - امطانيوس ميخائيل - ص 181.

ولاني لأرجو أن أكون قد قدّمت بعض العطاء وهذا حسبي.

لديّ شعور طاغ بقدسية الكلمة

لذا نمت الخشية من أن أودع المطبعة ما قد يُضيع على الناس وقتهم،
أو ما قد أشعر بعد زمن قليل بخفته، وأندم على إirاده ورحت أوجل،
ولكن إلى متى؟

لقد أدركت أنني لن أكون كاملاً أو قريباً من الكمال. ولكنّ خطوة
جدّية ومتواضعة تجعلني أعزز ثقتي بجدوى ما أقدم، وبأن الحياة سيرونة
نحو الكمال وليست وصولاً إليه.

مصادر الدراسة _____

مصادر الدراسة

- 1 - ديوان ابن الفارض - دار صادر - بيروت 1962
- 2 - ديوان أبي نواس - القاهرة - 1953
- 3 - ديوان الأخطل الصغير «الهوى والشباب».
- 4 - الأصمعيات - للأصمعي - دار المعارف بمصر - 1964.
- 5 - أطروحات جمالية - لمحمد الجندي - دمشق - 1985.
- 6 - ديوان الأعشى - دار الكاتب العربي - بيروت - 1983.
- 7 - الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني - دار صعب - بيروت - 1987.
- 8 - ديوان امرئ القيس - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر - 1969.
- 9 - أمالي المرتضى - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - دار الكتاب العربي - بيروت.
- 10 - ديوان البحتري - دار الكتب العلمية - بيروت - 1987.
- 11 - البعد الجمالي - لهربرت ماركوز - ترجمة جورج طرايشي - دار الطليعة - بيروت - 1979.
- 12 - تحفة العروس ومتعة النفوس - تحقيق خليل العطية - لندن - 1992.
- 13 - تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث - للدكتور نعيم اليافي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق.

العيون في الشعر العربي

- 14 - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام - للدكتور شكري فيصل - مطبعة جامعة دمشق - 1964.
- 15 - الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - الدار الإسلامية - بيروت - 1987.
- 16 - الجمالية عبر العصور - لإتيان سوريو - ترجمة ميشال عاصي - منشورات عويدات (باريس).
- 17 - حب وبطولة - لسليمان العيسى - مكتبة الشرق بحلب.
- 18 - دراسات فنية في الأدب العربي - للدكتور عبد الكريم اليافي - مطبعة جامعة دمشق - 1972.
- 19 - دراسات في الشعر العربي الحديث - لامطانيوس ميخائيل - المكتبة العصرية (بيروت).
- 20 - الديوان الجديد لأمين نخلة.
- 21 - ديوان ديك الجن الحمصي - مجمع عبد المعين الملوحي - مطابع الفجر بحمص - 1960.
- 22 - زهرة الآداب وثمر الألباب - لأبي اسحق القيرواني - القاهرة - 1953.
- 23 - السيرة الذاتية - لخليل الهنداوي.
- 24 - ديوان الشعر العربي - لأدونيس - المكتبة العصرية - بيروت - 1964.
- 25 - شاعر وقصيدة (مختارات شعرية) - لمصطفى طلاس - دار طلاس.
- 26 - الشعر والشعراء - لابن قتيبة - دار الكتب العلمية - بيروت 1981.
- 27 - شعر الهذليين - للدكتور أحمد زكي - دار الكاتب العربي 1969.
- 28 - شرح اختيارات المفضل - للخطيب التبريزي - دار الكتب العلمية -

بيروت 1987.

- 29 - الشوقيات - دار العودة - بيروت.
- 30 - طوق الحمامة - ابن حزم الأندلسي.
- 31 - طفولة نهد - نزار قباني.
- 32 - العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي - دار الفكر.
- 33 - علم الجمال «الاستطيقا» - دينس هويسمان.
- 34 - علم الجمال - محمد نظمي مساله - دار الفكر الجامعي.
- 35 - ديوان عمر بن أبي ربيعة.
- 36 - العين في الشعر العربي - الدكتور علي شلق.
- 37 - فقه اللغة وسر العربية - لأبي منصور الثعالبي.
- 38 - فكرة الجمال - هيغل... ترجمة جورج طرايشي - دار الطليعة - بيروت.

- 39 - فن المنتجب العاني - الدكتور أسعد علي.
- 40 - في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي - دار المعارف بمصر - 1966.

- 41 - في أدب وطب العيون للدكتور عبد الرحمن البابا.
- 42 - في النقد الجمالي - للدكتور أحمد محمود خليل - دار الفكر - دمشق.

- 43 - الكشكول - لبهاء الدين العاملي.
- 44 - لسان العرب - لابن منظور - دار صادر - بيروت.
- 45 - المأدبة - لأفلاطون - باريس 1964.
- 46 - شرح ديوان المتنبي - دار الكتب العلمية - بيروت - 1987.

- 47 - شرح ديوان مسلم بن الوليد - تحقيق سامي الدهان - دار المعارف
بمصر - 1970.
- 48 - مجاني الأدب - للأب لويس شيخو اليسوعي.
- 49 - مجمع البيان - للطبرسي.
- 50 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران - دار صادر -
بيروت.
- 51 - محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني - دار الجيل - بيروت.
- 52 - مدخل إلى فنون الجميل - لجيلسون - باريس - 1963.
- 53 - مسألة الحجاب - لمرتضى المطهري - الدار الإسلامية - بيروت -
1983.
- 54 - المستطرف في كل فن مستظرف - الأبشيهي - دار الجيل - بيروت
- 1992.
- 55 - مسرح الجمال والحب والفن - للدكتور أسعد علي.
- 56 - مفاهيم علم الجمال - شارل لالو - باريس - 1952.
- 57 - ديوان النابغة الذبياني - تحقيق د. شكري فيصل - دار الفكر -
بيروت - 1968.
- 58 - ناجي شاعر الوجدان الذاتي - لأحمد المعتصم بالله.
- 59 - النقد الأدبي «أصوله ومناهجه» لسيد قطب - دار الفكر العربي -
1952.
- 60 - النقد الجمالي - لأندرية ريشار - منشورات عويدات - بيروت.
- 61 - النقد الفني - لجيروم ستوليتز - ترجمة الدكتور فؤاد زكريا
(المؤسسة العربية للدراسات والنشر).

مصادر الدراسة

62 - نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب - لأحمد التيفاشي - الرئيس للكتب والنشر - لندن - 1992.

63 - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - لأبي منصور الثعالبي - دار الكتب العلمية - بيروت.

المجلات:

- مجلة اللوتس - الأعداد: 65 - 66.

- مجلة القيثار - العدد: 12.

- مجلة الموقف الأدبي - العدد 857 لعام 1975.

الفهرس

الفهرس

7	المقدمة
13	استهلال: بين يدي الكتاب
19	الفصل الأول
21	- مدخل إلى معرفة الجميل
35	- الجميل في كتب اللغة
37	- بين الجميل والحسن
41	الفصل الثاني
43	- معاني العين
47	- ثقافة العين وأهميتها
50	- أنواع النظر
57	الفصل الثالث
59	- محاسن العين
60	- أوصاف العيون الجميلة:
65	الفتور

<hr/>	
العيون في الشعر العربي	
العيون الكحيلة الساحرة	69
العين الحوراء	89
العين الزرقاء	95
العين الخضراء	105
الفصل الرابع	109
- معايب العين	111
- العين الحاسدة	117
- العين العمياء	126
الفصل الخامس	133
- معاني البكاء الإنسانية	135
- شيخوخة العين	141
- أفعال العين وتأثيراتها	
«جولة فنية في آفاق العين»	143
الخاتمة	171
مصادر الدراسة	179
الفهرس	187

العيون في الشعر العربي

«... في هذا الكتاب (العيون في الشعر العربي) للأستاذ محمد جميل الخطاب استعراض لما يتصل بالعيون في نسقين:

- * نسق الجميل خلقاً وشكلاً وتشكلاً مادياً..
- * ونسق الجميل إبداعاً واتساقاً وقيمة معنوية وروحاً ماثوثة في صور الإبداع الفني والأدبي والفكري.
- ولم يخل الباحث بجهد في تقصي المعرفة حول مواضيع تتصل بالبصر أو البصيرة لاستكمال بحثه. كما أنه عرج على أبواب أخرى في مجال المعرفة المتصل بالعين لغة ومدلولاً ودقة وصف وهوامش دلالية...
- إنه كتاب يستحق القراءة، وجهد باحث يستحق الاهتمام، وموضوع يستحق الاستكمال، إذ لا يبلغ الكمال إلا من هو الكمال بعينه..».

د. علي عقلة عرسان

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339

